مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر

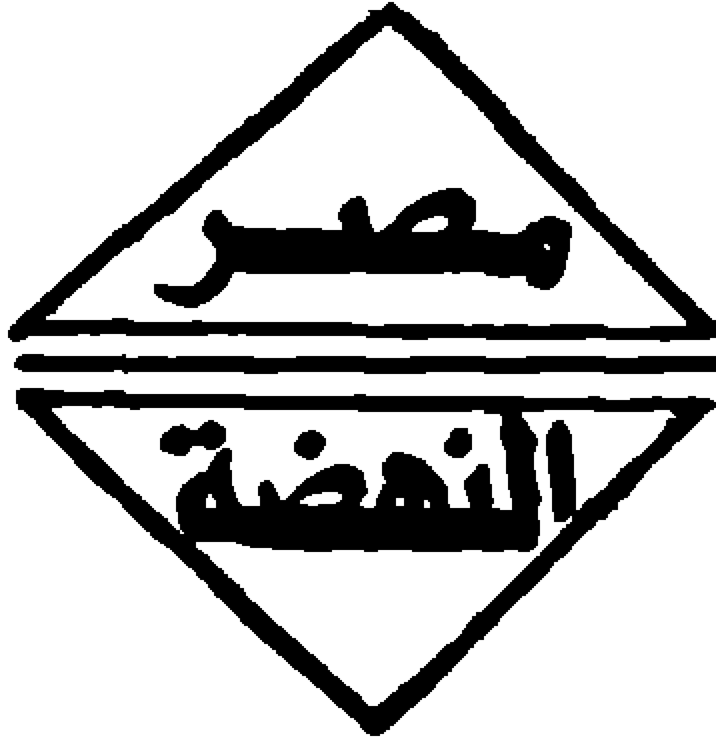
مصر النهضة

رؤية فى تحديث الفكر المصرى (٢)

احمد فتحى زغلول وقضية التغريب

د. احمد زكريا الشلق





مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر

إشراف : د. يونان لبيب رزق

رؤية فى تحديث الفكر المصرى (٢)

أحمد فتحى زغلول وقضية التغريب

د . أحمد زكريا الشلق



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٨٧

الاخراج الفنى : مراد نسيم

الاشراف الفنى : عفاف توفيق

تقـــديم

أن تكون « مصر النهضة » فى خدمة قضية تنوير العقل المصرى أمرا نوهنا به فى أكثر من مناســبة لدى تقـديم بعض أعداد هذه السلسلة ·

ففى هذا الاطار عنينا باصدار أعداد تتضمن دراســات عن مؤسسات لعبت دورها فى قضية التنوير مثل الجامعة الأهلية ومجمع اللغة العربية ، وفيه أيضا عنينا بتقديم دراسات عن التعليم ، وفيه أخيرا صــدرت دراستان عن تاريخ الفكرى المصرى ، أولاهما عن التيارات السياسية فى فكر الشيخ محمد عبده ، وثانيتهما بعنوان « رؤية فى تحديث الفكر المصرى » فى عدد السلسلة الخامس ·

وانطلاقا من القناعة بأهمية قضية التنوير يصدر العدد السادس عشر من « مصر النهضة » استكمالا للعدد الخامس ، ولنفس المؤلف الدكتور أحمد زكريا الشلق ·

والدكتور صاحب هذا الكتاب ، الذى يعمل مدرسا للتاريخ الحديث بكلية الآداب ـ جامعة عين شمس معنى بالتأريخ لعملية

تحديث الفكر المصرى · وهو فى هذا العدد يقدم الحلقة الثانية من حلقات رؤيته لتحديث الفكر ولشـــخصية ثانية لعبت دورا فى غاية الأهمية فى انجازها لهذا التحديث ، وهى شـــخصية « أحمد فتحى زغلول » ، الشقيق الصغير للزعيم الشهير « سعد زغلول » ·

ويمكن تسجيل ملاحظتين بشأن العدد الذى بين أيدينا ··

١ ـ أنه لأول مرة فى عمر « مصر النهضة » القصير يصدر عددان لمؤلف واحد فيما يبدو أنه أمر متناقض مع سياستها باتاحة الفرصة لأكبر عدد من الأقلام الشابة والمخضرمة ، ولكن قد يغفر هذا أهمية الموضوع من جانب ، وان العدد الجديد هو فى حقيقته « جزء ثان » من العدد الخامس ، وكنا حريصـين على نشـــره فى اطار السلسلة حتى يستكمل القارىء مجموعته من هذا المؤلف ·

٢ ـ ان شخصية « أحمد فتحى زغلول » قد لعبت على وجه اليقين فى حياة الفكر المصرى دورا أهم من ذلك الدور الذى لعبته شخصية أخيه « سعد زغلول » ورغم ذلك فبينما حظى زعيم ثورة ١٩١٩ بكل الشهرة والمجد التاريخيين فقد حرم شقيقه من كثير من أسبابها ، ونرى ان الوقت قد حان ليحصل « الشقيق المفكر » على نصيب ، ولو ضئيل ، من كل ما حصل عليه «الشقيق السياسى » !

ونحن عندما نسوق هاتين الملاحظتين لا نسوق « تبريرا » بقدر ما نقدم « تفسيرا » لعل القارىء يوافقنا عليه ، وعلى الله قصـــد السبيل ·

(مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر)

بسم الله الرحمن الرحيم

مقـــدمة

نشأت فكرة دراسة أحمد فتحى زغلول وقضية التغريب من عدة اعتبارات ، منها أن مسألة تحديث وتمدين المجتمع المصرى قد واجهت المثقفين والمفكرين المصريين منذ أوائل القرن التاسع عشر ٠ عندما اقتحمت أوروبا مصر فى شكل حملة عسكرية فرنسية غازية عام ١٧٩٨ ، واطلع المصـــــريون ، على كره منهم ، على نموذج حضارى قوى ومتفوق ، فى نواحيه المادية والمعنوية ، وزاد الاحتلال البريطانى لمصر عام ١٨٨٢ من الحاح القضية ٠٠ وخاصة عندما نشأت أجيال تحاول ادراك أسباب التأخر والضعف ، وتدرس أسباب تفوق الغرب ، وفى الحقبة الأولى أيام الحملة ظهرت اسماء الشيخ حسن العطار واسماعيل الخشـــاب وغيرهما ٠٠ ثم ظهر رفاعة الطهطاوى وعلى مبارك ٠٠ وبعد ذلك ظهر محمد عبده و قاسم أمين ولطفى السيد وأحمد فتحى زغلول وغيرهم ٠٠ واتخذت القضية شكل الاجابة على هذا السؤال : ماهو الأسلوب الذى ينبغى على مصر أن تتبعه لكى تنمو حضاريا وتتفوق ؟ وما هو المثل الأعلى الذى تحتذيه ، أهو النموذج الأوربى ، أم العودة الى الأصول النقية واستخراج أسباب التفوق منها ؟ وبدأت الاجتهادات تتوالى : فهؤلاء دعاة التجديد على النمط الغربى ، أو دعاة التغريب ، وأولئك دعاة

الأصول والسلفية والتمسك بالتراث ورفض النموذج الغربى ، وبين هؤلاء وأولئك دعاة التوفيقية من أنصار المزاوجة بين الأصول القيمة والتى تحمل فى طياتها بذور التطور ، وبين أساليب وأنماط الحضارة الغربية ٠٠ بل أكثر من هذا تفرعت عن هؤلاء وأولئك مذاهب شتى وظهرت اجتهادات كثيرة ٠ ولسـنا نبالغ كثيرا ان قلنا أن هذه القضية لاتزال تشغل مجتمعنا العربى وعالمنا الشرقى بأسره ، طالما هناك شرق وغرب ، وطالما أنهما لن يلتقيا الا على صراع !

ومن هذه الاعتبارات اننا نحاول ازالة غبار النسيان والتجاهل الذى لحق بتراث نفر من الكتاب والمفكرين المصريين ، فى محاولة لفهم تفكيرهم وتقدير اسهاماتهم فى تحديث الفكر المصرى ، وهو جهد بدأناه بدراسة عن الشيخ حسين المرصفي ، نشرت فى العام الماضى. ومنها أيضا أن أحمد فتحى زغلول لم يحظ بدراسة علمية تاريخية ، أو حتى غير علمية ، بالرغم من اسهاماته القيمة فى مجال تحديث المجتمع المصرى ، وبالتالى لم يوضع فى مكانته الصحيحة من تاريخ الفكر المصرى الحديث ٠

لقد تناول الرجل ، فيما ألف وترجم ، قضايا هامة تتعلق بتمدن مصر والمصريين ، وتتصل بالتغريب والتعريب ، والافادة من النموذج الأوروبى ، سواء ما يتعلق بتراثه أو نشاطه العملى ، بل أكثر من هذا ، فان فتحى زغلول ، على ما ستظهر الدراسة ، كان صاحب عقيدة ورأى ، ينادى بالافادة من الأصـول التى اسـتفاد منها الأوروبيون ذاتهم ، مع الفهم العميق لطبيعة وتكوين ومشـكلات المجتمع المصرى ، ومحاولة الافادة من هذه الأصول ، بما يتلاءم وطبيعة مصر والمصريين ٠

وفى الحق أن الرجل قد لقى اهمالا وتجاهلا لا يليق به ، فلم تكتب عنه تقريبا كل المؤلفات والدراسات التى تناولت تحديث الفكر

العربى أو مسألة التغريب · فتجاهله « د · هشام شرابى » فى كتابه عن المثقفين العرب وحضارة الغرب ، وكذلك فعلت « نازك سابايارد » وهى تكتب عن الرحالين العرب وحضارة الغرب كتابها القيم ، أما « د · ألبرت حورانى » فقد تذكره ببضعة سطور فى كتابه عن الفكر العربى فى عصر النهضـــة ، كذلك لم يتذكره الدكتور محمد محمد حسين « الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر » الا مقرونا بالحديث عن حادثة دنشواى ، باعتباره أحد جلاديها ! ·

وربما كان هذا التجاهل راجعا الى دوره فى محكمة دنشواى ، حين كان قاضيا مشاركا للانجليز فى محاكماتهم الجائرة للفلاحين المصريين ، حين كسب فتحى زغلول قضية وظيفته وذاته ، وخسر قضية الوطن ، ولحقت به لعنة دنشواى أينما حل أو ذهب ·· وما جئنا هنا لندافع عن الرجل ، فيما عجز عنه أصدقاؤه ومحبوه ، وانما أردنا أن نتناول جانبا آخر من حياة الرجل ، لم يشفع له فيه موقفه يوم دنشواى ، فقد عكف على تراث الحضارة الغربية وأصولها الثقافية ، يترجم منها ويعرب ، ويطبق ما ينقله على هموم وطنه ومتاعبه · ولعل فتحى زغلول بطبيعته الهادئة المتأملة ، كان عزوفا عن الدعاية لنفسه ، أو عن الانخراط ، بشـكل عملى ، فى ســلك الصحافة والسياسة ، بمعناهما العملى ، اللهم الا من بعيد · وربما كان طغيان شخصية أخيه الأكبر ــ سعد زغلول ، قد جذب الكثير من الأضواء من حوله ·

وقد آثرنا أن نبدأ هذه الدراسة بترجمة مركزة لحياة فتحى زغلول ، نلقى فيها الضوء على انتمائه الاجتماعى وتكوينه الثقافى والوظائف التى ارتقى فى درجها ، واتبعنا ذلك بدراسة موقعه من الحركة الوطنية المصرية ، وموقفه من الاحتلال البريطانى لمصر ، وأخيرا درسنا الخطوط العامة لاتجاهاته واسهاماته الفكرية والنظرية وآرائه ومفاهيمه ، عن المذهب التحررى (اللبرالى) والديمقراطية ،

والاشتراكية ، وفكر الصفوة ، وقضايا الاصلاح الاجتماعى ·

وتقتضينا أمانة البحث أن نشير الى اننا لم نستطع الحصول على مذكرات كتبها فتحى زغلول ، ذكر أحد أصدقائه أنه كان يدونها (الآثار الفتحية ص ٥) ومن هنا كان اعتمادنا بشكل أساسى على ترجمات فتحى والمقدمات والدراسات التى أسبق بها هذه الترجمات ، ثم كتبه المؤلفة الى جانب مقالاته وخطبه ومحاضراته ، والمبعثرة هنا وهناك ، وهى غنية بما يوضح دوره فى تاريخ الفكر المصرى الحديث ·

ولله الفضل من قبل ومن بعد

دكتور أحمد زكريا الشلق

الدوحة ـ قطر ـ نوفمبر ١٩٨٥

الفصل الأول

ترجمة حياة

ولد فتح الله صبرى (أحمد فتحى زغلول فيما بعد) فى ٢٢ فبراير ١٨٦٣ م الموافق ٤ ربيع الأول ١٢٧٩ هـ ، بقرية « ابيانه » بمديرية الغربية(١) ٠ وكان أصغر انجال المرحوم ابراهيم زغلول ، من أعيان القرية ، وقد توفى الوالد ، وهو مايزال رضيعا ، بينما كان أخوه سعد زغلول فطيما ، فخلفهما أبوهما فى حضانة أمهما ، التى كانت احدى عقائل عائلة بركات الشهيرة بنفس المديرية ، ولم يكن عمرها قد تجاوز العشرين عند وفاة الزوج ، وقد قام على تعليمهما ـ فتح الله وسعد ـ أخوهما الكبير لأبيهما « الشناوى أفندى زغلول » الذى عنى بتربيتهما على أحسن ما تعلم به ابناء الأعيان(٢) ٠

لقد تلقى فتحى زغلول تعليمه الأولى فى كتاب القرية ، ومنه انتقل الى مدرسة رشيد ، فالمدرسة التجهيزية ، ابان وقوع أحداث الثورة المصرية ١٨٨٢/٨١ المعروفة بالعرابية ، وقد شغلته الثورة بأحداثها وهو بعد لم يتجاوز العشرين فكان يحضر خطب عبد الله النديم بالاسكندرية ٠ وشارك فيها خطيبا ، يحث ويحرض ، الأمر

الذى تسبب ، مع تزايد نشاطه الثورى ، فى فصله من المدرسة ، بعد أن احتل الانجليز مصر فى عام ١٨٨٢ ، غير أن ناظر المعارف العمومية آنئذ ، أحمد خيرى باشا ، كان يحبه لنباهته وفصاحته ، فأراد مساعدته على اتمام دراسته ، لذلك نصحه بتغيير اسمه حتى يمكن اعادة قيده بالمدرسة ، على أنه طالب جديد ، ومن هنا أصبح اسمه « أحمد فتحى » بدلا من فتح الله صبرى »(٣) .

انتقل فتحى بعد ذلك الى مدرسة الألسن عام ١٨٨٣ ، ودرس بها وأبدى تقدما ملحوظا أهله لأن يكون عضوا بارسالية نظارة المعارف الى فرنسا ، حيث درس الحقوق منذ عام ١٨٨٤ ، وحصل عام ١٨٨٧ على درجة الليسانس فى القانون ، وعندما عاد الى وطنه أرسلته نظارة المعارف الى نظارة الحقانية حاملا طلب توظيفه بها « لتنتفع الحكومة بخـــدماته ، كما انتفع هو بتربيتهـــا له على نفقتها »(٤) .

وهكذا بدأ فتحى زغلول دراسته فى كتاب القرية ، شأن جيله ، حيث تلقى مبادىء القراءة والكتابة وبعضا من القرآن الكريم ، ولكنه لم يتجه ، شأن أخيه سعد وشأن معظم أبناء الأعيان فى هذه الفترة الى الأزهر ، لتتسع ثقافته الدينية ، ويضرب فيها بجذوره ، وانما اتجه الى المدارس الحديثة ليتلقى تعليما مدنيا حديثا ، انفتح من خـــلاله على اللغات والثقافات الأوروبية ، وكذلك درس القوانين الوضعية ، فى صياغتها الفرنسية ، مما سيكون له دلالة هامة فى تكوين ثقافته واتجاهاته وأفكاره فيما بعد على نحو ما سنرى .

استجاب فتحى بعد ذلك لنداء الوظيفة التى أهلته لها دراسته وثقافته ، وتحقيقا لذات طموحه لبلوغ أعلى مراتبها ، والتى تفضى الى مقاعد الحكم والسياسة ، فقد كانت اجازة الحقوق فى ذلك الوقت هى نقطة البداية ، ومنها يرتقى الى مناصـــب الادارة ومدارج السلطة . واذا عدنا الى ملفه الوظيفى ، عرفنا أنه بدأ حياته العملية

مساعدا لمندوب بقلم قضايا الحكومة منذ ١٢ سبتمبر ١٨٨٧ ، وعندما أنشـــئت المحاكم الأهلية · بالوجه القبلى ، رقى فتحى الى رئيس لنيابة اسيوط فى ٢٧ يونيو ١٨٨٩ ، ثم انتقل رئيسا لنيابة الاسكندرية، التى أصبح عضوا ، بحكم القانون ، فى مجلسها البلدى ، وكان هذا المجلس يضم صفوة من ذوى الكفاءات من الوطنيين والأوروبيين ، وظل فى وظيفته حتى صدر قرار تشكيل لجنة المراقبة القضائية ، فعين مفتشا بها عام ١٨٩١ ، وتدرج بعد ذلك حتى صار رئيسا لمحكمة المنصورة الأهلية فى ١٨ نوفمبر ١٨٩٣ ، ثم رئيسا لمحكمة مصر الابتدائية الأهلية فى ٢٦ فبراير ١٨٩٦(٥) ·

وقد ظل فتحى يشغل هذه الوظيفة مدة طويلة (نحو احد عشر عاما) بالقياس الى ســـــرعة تدرجه فى الوظائف ، حتى رقى الى وظيفة وكيل لنظارة الحقانية فى ٢٨ فبراير ١٩٠٧ ، ويفسر الزعيم الوطنى محمد فريد ، الذى كان أحد خصوم مذهبه فى الحركة الوطنية ذلك بأنه « قد اشتهر عنه الارتشاء وسوء السلوك والانهماك فى القمار، ولذلك منع وحرم من الترقى مدة وكانت النية معقودة على رفته ، الا أنه عين قاضيا فى محكمة دنشواى فى يونيو ١٩٠٦ ووافق الانجليز على حكمهم القاسى المشـــهور ، فقام الرأى العام ضـــده ورماه بالخيانة ، فعضده الانجليز وعينوه وكيلا لنظارة الحقانية »(٦) · وفى مقابل هذا يذكر صديقه عبد الخالق ثروت (الذى كان ناظرا للحقانية عند وفاة فتحى عام ١٩١٤) أنه كان وهو رئيس محكمة مصر الابتدائية آية فى القضاء وحسن الادارة ، حتى كان تداخل النظارة فى أمورها النظامية يكاد يكون معدوما جملة(٧) ·

على اية حال من المهم أن نوضح الآن أن فتحى زغلول ظل رئيسا لمحكمة مصر الابتدائية الأهلية منذ عام ١٨٩٦ وحتى ١٩٠٧ حين أصبح وكيلا لنظارة الحقانية ، وأنه ظل يشغل وظيفته الأخيرة حتى توفى فى ٢٧ مارس ١٩١٤(٨) · وبرغم تضارب الأقوال بشأنه

وتعارضها ، فمن المسلم به أن هناك عدة حقائق لا يمكن انكارها منها أنه كان طموحا بذل أقصى ما يستطيع لخدمة وظيفته ، ومنها علاقاته بمراكز القوة السياسة فى البلاد آنئذ (الخديو عباس حلمى ودار الوكالة البريطانية)، الى جانب موقفه من الأحداث التى عاصرها واشترك فيها ، ومنها أيضا دوره فى وضع القوانين والنظم والتشريعات خلال تلك الفترة ، بحكم وظائفه وثقافته القانونية الرفيعة ، مما أهله بغير شك لذلك المنصب ، وربما لمنصب الوزارة ذاته ، لولا أن العمر لم يمتد به ليرتقيه ٠

ثمة مسألة ينبغى أن تؤخذ فى الاعتبار نستنتجها من العرض السابق ، وهى أن انتماء فتحى زغلول لاحدى عائلات الأعيان المصرية القادرين ماديا ، الأمر الذى وفر له استقرارا ماديا ساعده على تحقيق طموحاته ، ثم ان دخله من الوظائف التى تولاها ٠ كان يعد كبيرا نسبيا(٩) بل أنه حقق فائضا استطاع استثماره فى أهم مجال عرف فى عصره للاستثمار ، وهو شراء الأراضى والعقارات ، ومن المعروف أن فتحى قد ورث ما يقرب من عشرين فدانا فى قريته ، واستمر يزيد عليها بالشراء ، حتى بلغت ممتلكاته عام ١٩٠٢ نحو ٣١٢ فدانا(١٠) ٠

وكان فتحى عضوا مؤسسا فى الجمعية الخيرية الاسلامية منذ أن أسسها محمد عبده مع صديقيه سعد زغلول وحسن عاصم عام ١٨٩٢ ، وظل عضوا بها حتى توفى ، كما أنه كان عضوا مؤثرا فى نشاطاتها ، حيث كان يختار فى كل لجنة تشكلها الجمعية ، وقد ورد فى تقريرها السنوى « أن فتحى كان أكبر الذين انفقوا أنفس أوقاتهم ، وبذلوا من قواهم وملكاتهم الكثير فى تكوين الجمعية حتى بلغت مكانتها وأصبحت تؤدى للأمة من النفع ما تعلمون »(١١) ٠

وقد أهلته مكانته الاجتماعية وتقدمه فى الوظائف التى تولاها ، والتى توجت بوكالة نظارة الحقانية ، لأن يحصل على مرتبة

« الميرميران براس همايونى » واصبح يحمل لقب « باشا »(١٢) ٠ وقد عرف اصدقاؤه من رجال العلم والأدب فضله فى مجالى الكتابة والترجمة ، فأقاموا له فى ٢٧ يونيو ١٩١٣ حفل تكريم بدار الجامعة المصرية ، حضرها العلماء والأدباء ورجال القضاءين الأهلى والشرعى ، وقدم فيها مجموعة أعماله مجلدة أنفس تجليد ، كما احتفلوا بتكريم ذكراه فى حفل آخر أقاموها لتأبينه بدار الأوبرا الخديوية فى ١٨ مايو ١٩١٤ بمناسبة مرور اربعين يوما على وفاته واشترك فى رثائه بها الوزراء والامراء(١٣) ٠

وقد ذكر لطفى السيد « أن جنازته قد شيعت من بيت أخيه سعد باشا ، ومشى فيها كل الرجال الرسميين ورجال الأمة واهل العلم والأدب ، فكان هذا الموكب من أكبر ما وجد فى مصر »(١٤) ٠

وتتفق أغلب المصادر على أن فتحى زغلول قد لعب دورا اصلاحيا كبيرا ، وكان رجل ارتقاء واصلاح ، فساهم فى وضع قوانين المحاكم الشرعية ، التى تنظمها وتسير بمقتضاها ، كما أسهم بدور بارز فى وضع نظم المعاهد الدينية الأزهرية ، فقد كان رئيسا للجنة التى شكلت لاصلاح هذه المعاهد ، وكانت تضم معه اسماعيل صدقى وعبد الخالق ثروت ، وقد اعترف الأخير بأن فتحى وحده كان صاحب الفضل فى كل ما وضع من نظامات(١٥) ٠

فكم بحث ونقب وجمع ورتب وحادث واستشار ، ووقف مواقف مشهورة منتصرا لما يعتقده الحق ، وتاييدا للاصلاح ، حتى صار اسمه لا يذكر الا مقرونا بماله من الفضل فى هذا السبيل(١٦) ٠

لقد كان فتحى عمدة الحكومة فى كثير من المشروعات الدقيقة التى تحتاج الى مفاوضات بين جهات مختلفة ، وموضع استشارة ، عن نظارته وغير نظارته ، فى وضع القوانين ، كما تشهد بذلك الألسن والتقارير الرسمية(١٧) . ولا عجب فى ذلك فقد كان فتحى على دراية واسعة وعميقة بدراسة النظم والقوانين فى مصر وأوروبا ، كما تميز بعقلية محققة مدققة ذات مقدرة وكفاية على الصياغة القانونية ، صـــقلتها الدربة والمراس فى مجال العمل ومجال التأليف القانونى على حد سواء .

***

الفصـــل الثانى

فتحى زغلول والحركة الوطنية

آن لنا أن نتساءل عن دور أحمد فتحى زغلول فى السياسة المصرية ، وعن مذهبه فى الوطنية ويمكننا أن نستنتج ذلك من خلال نشاطاته وعلاقاته بمراكز القوة السياسية ومصادرها ، ومن خلال صلاته بالتجمعات السياسية أو الأحزاب التى ظهرت فى عصره ٠ وبادىء ذى بدء ينبغى أن نذكر أن فتحى زغلول ينتمى لجماعة الامام محمد عبده ومذهبها فى السياسة والوطنية ٠ تلك الجماعة التى تبدأ جذورها منذ وجود جمال الدين الافغانى بمصر خلال سبعينات القرن التاسع عشر ، ثم ازدهرت بفكر ونشاط محمد عبده ، وكانت تعقد أجتماعاتها بصالون الأميرة نازلى فاضل ، الذى لعب دورا هاما فى تغيير أفكار محمد عبده الخاصة بالانجليز ، وسمح بصـــداقته للورد كرومر ، كما ساعد بعض المصريين المتنورين ، ممن اختلفوا اليه فى الحصول على مناصب الادارة المصرية ٠ ثم لعبت الجماعة دورها من خلال الجمعية الخيرية الاسلامية ، كما التقت فى حلقات الامام الاسبوعية التى كان يلتقى فيها بعض المفكرين من متخرجى

دار العلوم وأساتذة المدارس الأميرية وغيرهم من رجال الحكومة والأدباء(١) .

لقد كان فتحى من الرعيل من تلاميذ محمد عبده ، ومن أقرب انصاره اليه ، وكان هو وسعد يرجعان للامام فى كل خطوبهما . ويتحاكمان اليه فى تنازعهما ، ويكونان معه كالولد أمام والده ، والتلميذ بين يدى أستاذه(٢) . وقد بلغ من صداقة فتحى للامام انه كان ممن يصطفيهم الامام معه للاصطياف بسوريا ، وكان فتحى وقتها رئيسا لمحكمة مصر الأهلية ، وغير بعيد أن يكون فتحى قد تأثر بأفكار استاذه وتوجيهاته فيما نقل وترجم عن الفكر الأوروبى(٣) .

وكان فتحى زغلول على رأس الساعين لتكريم الشيخ بعد وفاته فقد اجتمع تلاميذه واصدقاؤه للتشاور فيما يمكن عمله لتخليد ذكراه ، فمنهم من اقترح انشاء مدرسة جامعة باسمه ، ومنهم من اقترح اقامة مكتبة ... الخ . وقد روى سعد زغلول فى مذكراته أن فتحى ذهب مع أخى الشيخ محمد عبده وقدمه للورد كرومر ، وشكره على كونه ساعد عائلته بالمبلغ الذى أعطى لها عقب وفاته ، وأنه انتهز الفرصة لاستشارة المعتمد البريطانى فيما يمكن عمله لتخليد ذكرى الامام ، فقال له كرومر : اذا أردتم أن تقيموا مدرسة فلتكن على مثال كلية « عليكرة » بالهند ، ووعد باحضار نظم هذه المدرسة ، وقد أحضرها فعلا وسلمها لفتحى(٤) .

ولم يقدر لفكرة المدرسة أن تتم حيث استبدلت بفكرة اصدار صحيفة من جانب أنصار محمد عبده وتلاميذه ، ليعبروا عن اتجاهه فى السياسة المصرية ، ذلك الاتجاه الذى اتضحت ملامحه وعلاقاته ، وتشربه اشياعه واتباعه ، وقد لقوا اهتماما واضحا من اللورد كرومر ، وأشاد بهم فى تقاريره وكتاباته ، كما اشاد باتجاهاتهم

الاصلاحية ، وبعدهم عن فكرة الجامعة الاسلامية ، وقد حبذ فيهم كرومر اعتدالهم فى مذهبى الاصلاح والوطنية ، واعتبرهم لا يقلون وطنية عن « المتطرفين » من أنصار مصطفى كامل وحزبهم الوطنى . وقد رأى كرومر أنهم أمل القومية المصرية فى معناها العملى ، ومعقد الرجاء فى التعاون مع الأوروبيين(٥) .

وقد نسب أحمد فتحى زغلول لنفسه فكرة تكوين شركة الصحيفة ، التى سميت « الجريدة » فيما بعد ونطقت بلسان حزب الأمة ، فقد ذكر سعد أن أخاه سعى لدى الخديوى عباس حلمى بأن سعدا أراد أن يؤلف من أصدقاء الشيخ وأنصاره حزبا وجمعهم عنده ، ولكنه ـ أى فتحى ـ أراد أن يحولهم عن غرضهم ، فأخذ أخا الشيخ محمد عبده الى اللورد كرومر ، ومن هنا نشأت فكرة اصدار جريدة . وان كان سعد قد استنكر هذه السعاية وكذبها ، الا أنه ذكر أن فتحى روى له أنه قابل الخديو وذكر له (أنى أنا الذى أنشأت الجريدة ، ولولا دخولى فيها ما تم من أمر انشائها »(٦) .

وبالفعل توالت اجتماعات الأنصار والفوا جمعية عمومية لاعلان اصدار الصحيفة ، وقد ضمت هذه الجمعية عددا من كبار الموظفين ، الذين امتنعوا عن الترشيح لمجلس ادارة الجريدة ، على اعتبار أن ذلك يعدنشاطا سياسيا تحول وظائفهم دون التورط فيه ، « وبقى أصحاب السعادة الموظفين غير عاملين ، وان كانوا مساهمين تجب دعوتهم لحضور الجمعية العمومية » . وكان فتحى زغلول على رأس هؤلاء ، بل لقد ترأس اللجنة التى شكلت لوضع قانون الشركة(٧) .

ويبدو حقيقة أن دور فتحى زغلول فى تأليف شركة « الجريدة » وتاسيس حزب الأمة ، الذى نطقت بلسانه ، قد وقف عند هذا الحد .

فقد عرف بغضب الخديو عليها ، وعلى من يشتغلون بها ، فانصرف عنها تماما ، بل ان الخديو عندما استدعاه وعاتبه على هذا الأمر ، نسبه الى محمد محمود ــ مدير الفيوم آنئذ ــ وأضاف انه هو الذى يحضر من الفيوم دائما للاشراف على أعمالها(٨) . وفى هذه الرواية الأخيرة ما يناقض ما رواه فتحى لأخيه سعد من أنه ذكر للخديو أنه هو الذى أنشأ الجريدة .

والأكثر من هذا أن فتحى زغلول تعهد للخديو ، فى مقابلته الأخيرة ، بأنه سيسعى لاحباط الجريدة وحزب الأمة ، وعندما واجه سعد أخاه بما يقوله الناس « فى الخارج عن هذه المقابلة ونسبوا اليك أنك تعهدت لجنابه أن تفسد الجريدة وحزبها »(٩) لم يستطع فتحى أن يدافع عن نفسه . بينما برر محمد محمود انسلاخ فتحى عن جماعة الجريدة بأنها أصبحت تكتب ضد اللورد كرومر(١٠) وكانت لهجة الصحيفة قد بدأت تتغير بالفعل عقب رحيل اللورد كرومر عن مصر نهائيا وتأكدها من أنه لن يعود .

***

يقودنا ما سبق الى التساؤل عن علاقة فتحى زغلول بالخديوى عباس ، صاحب السلطة الشرعية فى البلاد ، والذى كان على علاقة سيئة باللورد كرومر . وهوما عرف « بسياسة الخلاف » بين السلطتين ، الشرعية والفعلية ، ويمثل كرومر السلطة الأخيرة ، لقد كان فتحى ، وهو من كبار موظفى الدولة ، حريصا على أن تظل علاقته بالخديو طيبة دائما ، ومن ثم كان يبتعد عن أى عمل يغضبه أو يثير حفيظته ، بل كان فتحى يطلع الخديو ، من خلال زياراته المتكررة للديوان الخديوى ، على ما يدور بين اصدقائه من السياسيين أولا بأول ، ولعل هذا ما دعا سعدا لأن يواجهه بأن « الكثير من الناس يقولون عليك أقوالا كثيرة : يقولون أنك دساس تسىء الى اخوانك اذا تمكنت ولا تبالى الا بفائدتك »(١١) وكان فتحى يكافأ

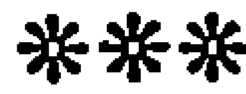
على ذلك باستحسان الخديوى ورضائه ، بل وانعاماته ، فعندما وشى بمحمد محمود للخديو وذكر له أنه يجىء من الفيوم ليشتغل بالجريدة وحزب الأمة كما ذكرنا ، علق الخديوى « انى راض عنك وقد منحتك نيشانا »(١٢) ٠

ولم يكن الخديوى عباس فى الواقع يثق بفتحى زغلول ، وانما كان يقربه منه ليستخدمه للعمل ضـــد زملائه ، فقد أنبه الخديو ووبخه ـ كما مر بنا ـ لاشتغاله بأمر « الجريدة » فذكر للخديوى ، مدافعا عن نفسه ، بأنه عندما رأى الجريدة سارت على غير أفكاره ، قطع علاقته بها وبحزب الأمة ، وانه لم يجتمع باعضائه الا فى الليلة التى اجتمعوا فى مسائها(١٣) ٠

ولكن يبدو أن فتحى ظل على عـــلاقته برجال الحزب ، من أصدقائه السياسيين ، لأن الخديو عاد واستدعاه فى يناير ١٩٠٨ (أى بعد ثلاثة أشهر من قيام حزب الأمة) وقال له : « انى انتقد عليك قبل كل شىء أنك من حزب الشيخ محمد عبده ، الذى افتضحت نياته السيئة فى هذه الأيام ٠٠ وانتقد عليك كذلك أعمالك فى حزب الأمة ، وفى الجريدة ٠٠ فقال فتحى : يا أفندينا نحن غير راضين عن خطة الجريدة ، ولهذا حررنا لمديرها خطابا بذلك » ووعد أن يحضر لسموه الخطاب ، وقد ذكر الخديو لأحمد شفيق ـ الذى روى اللقاء ـ « عند أخذ هذا الخطاب سأسلمه لجورست وأقول له هل يليق بموظف كبير أن يتدخل فى مسائل الجرائد والمسائل السياسية ويكون عضوا فى حزب ؟ ! »(١٤) ٠

لقد كان فتحى زغلول يهدف الى ارضاء الخديوى ، فلم يكن على استعداد لمعاداته ، وذلك لحرصه على ايجاد نوع من التوازن فى علاقاته ، ممهدا بذلك السبيل لتحقيق طموحاته ٠ وبشكل عام يمكن التأكيد على أن حزب الأمة ، الذى أعلن عن قيامه فى سبتمبر ١٩٠٧ ،

لم يشهد بعد ذلك لفتحى زغلول أى نشاط فيه ، كما لم يكتب فى صحيفته ، التى تجاهلته هى الأخرى ، وتجاهلت مؤلفاته وكتاباته ، برغم انتمائه ثقافيا وفكريا لجماعة المثقفين والكتاب الذين ضمتهم صحيفة الحزب ·· ويمكننا القول بأن فتحى ، رغم اشـــــتراكه فى تأسيس صحيفة الحزب وفى تأليف الحزب ذاته ، الا أنه ابتعد عنه تماما بعد عدة شهور من اعلان قيامه ، ارضاء للخديو ، واسترضاء للمعتمد البريطانى الجديد « السير الدن جورست » الذى أصـــبح على وفاق تام مع خديو البلاد ·



وتعود علاقة فتحى زغلول بقضية الاحتلال البريطانى وسلطاته بمصر ، تعود الى انتمائه السياسى لجماعة الشيخ محمد عبده ، وفى اطار هذا الانتماء تحرك موقفه من القضية الوطنية ، لقد كان فتحى واعيا بحقيقة الصراع بين صاحبى السـلطتين فى مصـــر ، الشرعية ويمثلها الخديو ، والفعلية ويمثلها كرومر ، ومن هنا تجاهل سلطة الخديوى وتعامل مع الحاكم الحقيقى لمصر ، وكان كرومر عنيفا مستبدا بكل الأمور ، ممثلا لمصالح بلاده الاستعمارية خير تمثيل ، كما كانت فى يده مقاليد الأمور جميعا ، وكان حريصا على تقوية الاتجاه الذى يمثله محمد عبده وأنصاره فى السياسة المصرية ، وربما كان سير فتحى زغلول فى هذا الاتجاه ، بعد وفاة محمد عبده ، يتفق ومصالحه الخاصة ، التى ستتحقق بدون شك من خلال اشتغاله فى اطار هذه الجماعة ، بمباركة اللورد كرومر وتعضيده ·

ولم يقتصد فتحى فى نشاطه ، كما فعل سعد بحنكة ، فاشتغل صراحة فى هذا الاتجاه ، وتقدم الصفوف وذهب مع أخى الشيخ محمد عبده الى الوكالة البريطانية ، وشكر اللورد كرومر على ذكره الامام فى تقريره السنوى واشادته به ، وكان بينهما ما كان بشأن تخليد ذكراه(١٥) · وربما تصـــــور فتحى زغلول أنه يقود بذلك

··

الجماعة ، وبهذا يكون قد حدد حركته بتقديم نفســـه على النحو السابق ، لصاحب القوة الفعلية فى مصر ، ومن الطبيعى أن علاقته باللورد كانت طيبة ووثيقة ، بحيث سمحت له بأن يتولى هذا الأمر ٠

ثم راح فتحى زغلول يقدم نفسه لسلطات الاحتلال البريطانى قاضيا فى محكمة دنشواى ، وكان بذلك واحدا من جلادى دنشواى !٠ فعندما وقعت الحادثة فى ١٣ يونيو ١٩٠٦ ، وادعت فيها سلطات الاحتلال أن فلاحى القرية المصرية قد اعتدوا على الضباط الانجليز وقتلوا واحدا ، **شكلت محكمة مخصوصة لمحاكمة الفلاحين ، وكان تشكيل هذه المحكمة على النحو التالى :**

- بطرس باشا غالى بصفته قائما بعمل ناظر الحقانية رئيسا
- مستر وليام جودينو هيتر القائم بعمل المستشار القضائى عضوا ٠
- مستر بوند نائب رئيس محكمة الاستئناف الأهلية عضوا
- الكولونيل لادلو مسئول القضاء والمحاماة بجيش الاحتلال عضوا ٠
- أحمد بك فتحى زغلول رئيس محكمة القـــاهرة الابتدائية الأهلية عضوا ٠

كما تولى السكرتارية عثمان بك مرتضى ، وقام بمهمة الادعاء ابراهيم بك الهلباوى ، وتولى مهمة الدفاع : محمد بك يوسف ، اسماعيل بك عاصم ، ثم أحمد بك لطفى السيد(١٦) ٠

وقد تمت اجراءات المحاكمة فى الفترة ٢٤ ـ ٢٧ يونيو وسط مشاعر السخط والغضب من قبل الجماهير ، وصدرت أحكام قاسية

جائرة لا تقبل الطعن ، تقضى باعدام أربعة ، وبالاشـــغال الشاقة المؤبدة لاثنين ، وبالسجن ١٥ عاما لواحد ، كما قضت على ستة آخرين بالسجن سبع سنوات ، وبالحبس والجلد على آخرين لمدد قصيرة ٠٠ وفى ٢٨ يونيو نفذت الأحكام جميعها فى وقت واحد ، تحت سمع وبصر الأهلين لارهابهم ٠٠ وكانت الاجراءات الشنيعة التى لجأت اليها سلطات الاحتلال فى هذه المحاكمة وتلك الأحكام مثار سخط عميق فى الداخل والخارج ، مما ألهب المشاعر الوطنية ضد وحشية الانجليز(١٧) ٠

بل ان اللورد كرومر قد اعترف فيما بعد فى كتاب ألفه عن الخديو بعنوان « عباس الثانى » بأن الأحكام التى صدرت عن المحكمة المخصوصة فى دنشواى لم تكن عادلة(١٨) ٠ كما نجح الزعيم الوطنى مصطفى كامل فى استغلال هذه الأحكام لفضح السياسة الكرومرية وبربرية الانجليز ٠

وليس من قبيل الصدفة أن يكون ثلاثة من شيعة الامام محمد عبده من أبطال محاكمة دنشـــواى ، قضاة وجلادين ومحامين ، فلطفى السيد ، الذى مثل فى هيئة الدفاع ، رغم محاولاته توضيح أن الهجوم على الضباط الانجليز كان محض صدفة ، وأن الجريمة بنت لحظتها ، الا أن المحكمة أقرت بجرم الفلاحين ، ورفضت طلبه اســـتخدام الرأفة ٠ وابراهيم الهلباوى ، ممثل النائب العمومى فى التحقيق ، وقف ساعات ثلاث يطالب القضاة بأن ينزعوا من قلوبهم كل رحمة ، ويشيد بما قدمته سلطات الاحتلال لمصر ، ومن المذهل أن الهلباوى قد بنى ادعاءه على أن الضباط الانجليز صـــادقون بالفطرة ، أما الفلاحين فهم كاذبون بالفطرة أيضا !(١٩) ٠

أما الثالث فهو أحمد فتحى زغلول ، العضو المصرى الوحيد بعد الرئيس ، فى هيئة القضاة ، وهو الذى تولى صـــياغة حيثيات

الحكم ، وكانت صورة أخرى من وجهة النظر الانجليزية بشـــأن الحادثة ، من حيث الاشارة الى أن الأهالى هم الذين أشعلوا النار عمدا فى حقولهم ، كمقدمة لمهاجمة الضباط الانجليز ، وقد أضاف فتحى زغلول « أن الجريمة وقعت على ضباط عرفوا بالبسالة وجابوا مواقع الحروب ، وكان فى امكانهم صيد المعتدين ، بدلا من صيد حمامهم ، ولكنهم صنعوا جميلا ، فسلموا عدتهم ليسلموا ، فكان العطب فيما فعلوا ٠٠ هؤلاء المتهمون لم يتركوا ، بعملهم الفظيع هذا محلا للشفقة ، فما كانوا من المشفقين ٠ »(٢٠) ٠

وقد علق القاضى الانجليزى « مارشال » وهو من زملاء بوند وفتحى زغلول ، على الحيثيات التى كتبها فتحى زغلول بأنها « من أضعف ما قرأت ، وأنها من النوع الذى تتم صياغته ليلائم الأحكام التى تصدر ، وأنه أراد أن يرضى الانجليز لأنه بقى مدة طويلة رئيسا للمحكمة الابتدائية ، وكان يريد أن يرقى الى محكمة الاستئناف ، لكن بوند لم يكن يريده هناك ٠٠ »(٢١) ٠

وتتفق معظم المصادر على أن فتحى زغلول كوفىء من جانب الانجليز ، على موقفه اثناء المحاكمة ، بترقيته الى منصب وكيل نظارة الحقانية ، وليس الى محكمة الاستئناف ، وقد رقى الى المنصب الكبير بعد ثمانية شهور من المحاكمة بالفعل اشتغل خلالها بالاشتراك فى تأليف شركة « الجريدة » ووضع قانونها وتأسيس حزب الأمة ٠ عندما تولى فتحى منصبه أقام له بعض كبار الموظفين والأصدقاء حفل تكريم بفندق « شبرد » وطلبوا الى أمير الشعراء أحمد شوقى بأن يشاركهم حفلهم باحدى قصائده ، فوعدهم بارسالها لتلاوتها ــ وكان شوقى لا يتلو شعره بنفسه ــ وبالفعل وصل رسول الشاعر الى المحتفلين ، **وكانت المفـاجأة أن احتوت القصـــيدة على هذه الأبيات** :

اذا مــــا جمعتم أمـــــركم وهممتم
بتقـــديم شـــىء للوكيـــل ثمــين !

خذوا حبل مشـــــنوق بغير جريرة
وســـــروال مجلود وقيد ســــجين

ولا تعرضــــوا شعرى عليه فحسـبه
من الشـــــعر حـــــكم خطه بيمــين

ولا تقرأوه فى « شـــبرد » بل انشروا
على ملأ دنشـــواى حـــزين(٢٢)

وقد هاجمت كل الصحف الوطنية موقف أحمد فتحى زغلول هجوما عنيفا ، وظلت لعنة اشتراكه فى هذه المحاكمة تطارده من قبل القوى الوطنية ، ولم تدافع عنه سوى صحيفة « المقطم » الناطقة بلسان سلطات الاحتلال(٢٣) ٠ بل ان أحدا من أصدقاء فتحى زغلول، أو المنتمين لاتجاهه السياسى والوطنى ، لم يجرؤ على الدفاع عنه ، ولم تشأ الصحيفة التى اشترك فى تأسيسها أن تكتب شيئا عن ذكرى الحادث ٠ والواقع أن اشتراك فتحى فى هذه المحاكمة أمر يستحيل تبريره أو الدفاع عنه ، مهما بلغ من حرصه على وظيفته أو قيامه بواجباتها ، ثم ان هذا الاشتراك فى حد ذاته يعد جزءا من موقف عام واتجاه سياسى تبناه وامتلك عليه نفسه ٠ على كل حال لم نجد فيما قرأنا عن فتحى زغلول ســوى تبرير ضـــعيف غامض ، لموقفه فى دنشواى ، كتبه أحد أصدقائه من القضاة ، وان لم يجرؤ فيه على ذكر دنشواى صراحة ، ذكر فيه :

« ان فى حياة الكثيرين ممن يولون الأحكام فى مثل الظروف السياسية ، التى تحف بدولة أو حكومة مثل مصر وحكومتها أسرارا تغيب عن سواد الأمة ، وقد يؤولها بعض من لا تبعة عليهم ولا مسئولية ، على ما تشتهيه أنفسهم أو تصـــل اليه مداركهم ٠

ويكون الذى أساءوا به ظننا قد أفرغ ما فى جعبة قدرته فى سبيل الدفاع عن مصلحة أمته ٠ »(٢٤) ٠

ثم حدث أن اشتغل فتحى زغلول بتأليف شركة « الجريدة » ووضع قانونها ـ كما مر بنا ـ وكان على رأس أهدافها « عدم اثارة المسائل ذات الطبيعة الخاصة » التى دأبت الصحف الأخرى على اثارتها فأقضت مضاجع سلطات الاحتلال البريطانية بمصر ، وكذلك كان من هذه الأهداف خلق رأى عام يقر ما تفعله الحكومة ، أما أسلوبها فهو « الاعتدال » الذى يناقض « التطرف » الذى سلكته الصحافة الوطنية ، من وجهة نظر الانجليز ٠ ومن المعروف أن هذه المبادىء تحولت الى برنامج حزبى ، عقب اعلان تحول « شركة الجريدة » الى حزب سياسى هو حزب الأمة ، ويمكننا أن نستنتج أن فتحى زغلول لعب دوره فى صياغة برنامج هذا الحزب ، الذى تجاهل مسألة الاحتلال البريطانى ، فلم ترد فى برنامج الحزب أية اشارة عن مسألة الاستقلال ، الذى اعتبر مسألة سابقة لأوانها ٠٠ كانت فكرة الحزب تنبع أساسا من كون اقتناع رجاله بأن الاحتلال قائم وأن زحزحته ليست بمجرد الكلام أو التفكير فيه ، أو حتى الميل اليه ، وانما بالتعامل معه ، وفى نفس الوقت اعداد الأمة بالكفاءات التى ستؤدى الى الاستقلال(٢٥) ٠

كان موقف فتحى زغلول من القضية الوطنية يدخل ضمن هذا الاطار ، ويتبنى هذا الاتجاه السياسى ، وهو موقف مستمد أساسا من علاقته باللورد كرومر ٠ وقد ذكر محمد محمود أن فتحى قد انسلخ عن جماعة « الجريدة » لأنها أصبحت تكتب ضد اللورد كرومر(٢٦) ٠ ومن المعروف أن الصحيفة لم تنتقد سياسة اللورد الا بعد ابعاده عن مصر وتأكدها من عدم عودته الى مصر مرة ثانية ، كذلك فان فتحى بدأ يدرك تحول ميزان السلطة لصالح الخديو عباس بعد رحيل كرومر وانتهاء الصراع بينهما ، ومن هذا بدأ يتنكر

بجريدة وجماعتها · ويعتذر للخديو عن اشـــتغاله بها ، ويتعهد بالعمل على تخريبها · ولم تشهد الفترة التالية موقفا ايجابيا له ضد الوجود البريطانى فيما بعد ، كما لم نقرأ له مقالا سياسيا يوضح تبنيه اتجاها سياسيا جديدا حتى وفاته عام ١٩١٤ ·

***

وحتى تكتمل صورة أحمد فتحى زغلول واتجاهاته السياسية من خلال علاقاته نرى لزاما علينا أن نوضح علاقته بأخيه سعد ، ولم يكن فتحى على علاقة طيبة به على الاطلاق ، كما كانت بينهما غيرة ومنافسة شديدتين ، خاصة بعد أن وشى فتحى بأخيه لدى الخديو ، والتى أفاض سعد فى ذكرها فى مذكراته متألما ، فذكر أن فتحى « أراد أن يؤثر على الخديوى بجميع الطرق ، وانه لم يبال بأخيه ولاباخوانه فى ذلك الا قليلا ، وانتهيت معه بأن قلت له ان كثيرا من الناس يقولون عليك أقوالا كثيرة ، يقولون انك دساس تسىء الى اخوانك اذا تمكنت ولا تبالى الا بفائدتك ، فان كنت تعلم من ذلك شـــيئا فأقلع عنه والا فاستمر على ما انت فيه فأنت أعلم بحالك ·· »(٢٧) ·

كذلك فقد نقل فتحى للخديو أن أخاه سعد ورفاقه أرادوا تأليف حزب سياسى على مبادىء الشيخ محمد عبده ، وأنه ـ أى فتحى ـ صرفهم عن ذلك بالعمل على تأليف شركة « الجريدة » ، فتكدر سعد من هذه الدسيسة وذكر أن فتحى وأصحابه شرعوا فى انشاء الجريدة على غير علم منه وأنه لما دعاه للاشتراك فيها رفض ، وأضاف أن الاكتتاب لها وتحرير قانونها تم وهو غائب عن البلاد ، ثم رفض سعد أن يقف بين يدى الخديو مكذبا أخاه ومبينا أنه ـ على حد تعبيره ـ « دساس خائن » وبات فى كرب شديد لا يدرى ماذا يصنع « أأسكت على هذه الدسيسة ، وربما فيها ضرر أو أدافع عن نفسى بالحقيقة وأضر أخى ·· مركز حرج ولكننى أفضل السكوت وأفوض

أمرى الى الله لأننى مهما دافعت فلن يجدى ذلك نفعا ، وانما يثبت الشبهة فينا ويوجب زيادة سقوطنا ٠٠ »(٢٨) ٠

كما روى سعد مرة أخرى « ان هذا الشخص لديه غيرة شديدة منى ويرى أن وجودى مانع له من التقدم من جهة ، ومن الاسترسال مع شهواته من جهة أخرى ، فهو يعمل على الدوام على اسقاطى لتزول من أمامه عقبة ، ولكى يفعل ما يشاء ٠ تطمع نفسه للوزارة ويرى أنه أحق بها لأنه أقدر منى على القيام بأعبائها ، وأكفأ منى لأعمالها ، ويرى أن وجودى فيها مانع من ترقيه اليها ٠٠ ما ذكرت أمامه عملا عملته بصفة وزير الا ذكر لنفسه عملا يشابهه بصفة وكيل ٠٠ » ولعله ليس غريبا ألا يكتب سعد شيئا عن وفاة أخيه مثلما كتب عن آخرين ليسوا على هذه الدرجة من القرابة(٢٩) ٠ لقد كان فتحى بحق ينفس على أخيه توليه الوزارة وكان يعتقد بالفعل ، فى قرارة نفسه ، أنه أكفأ منه لتوليها ، لكنه لم يقدر الاعتبارات الأخرى التى على أساسها تتألف الوزارات ، وكان سعد أقدر على فهم توازنات القوى واتجاهات رياح السياسة ٠

***

الفصل الثالث

فكره السياسى والاجتماعى

ان التراث الثقافى والآثار الفكرية التى خلفهـــا أحمد فتحى زغلول تعد بحق الجانب المتميز فى حياته العامة ، وبالذات فى مجال الفكر الاجتماعى والسياسى ، سواء فيما ألفه أو ترجمه ، ولن يتسنى لنا أن نفهم قيمة الاسهام الفكرى الذى قدمه لمصر والمصريين ما لم نجمع شتات مؤلفاته وترجماته ، أو مصنفاته التى نشرها هنا وهناك منذ أواخر القرن التاسع عشر ، وحتى وفاته عام ١٩١٤ ، والتى أعيد طبع بعضها فيما بعد ، فى طبعات ثانية فى أوائل العشرينات من هذا القرن ٠

لقد كان لفتحى آراء فى المذهب التحررى أو اللبرالى ، بل كان من دعاته ، كما كان مؤمنا بفكر الصفوة أو النخبة الممتازة فى المجتمع ودورها فى قيادته ، وكان فى المقابل من خصوم المذهب الاشتراكى ، كذلك أسهم بآراء على درجة كبيرة من الاستنارة فى تطوير التربية والتعليم واصلاح اللغة العربية ، كما أن فهمه للدين لم يكن فهما

تقليديا . وانما كان أقرب الى التحرر من قيود النصوص ، مع ايمان مطلق بصلة الدين بالعلم وبالعقل بما لا يمس جوهر الايمان ٠٠ وفوق هذا وذاك كانت للرجل اســـهامات متميزة فى مجال الكتابة القانونية وفى التشريعات ٠٠

ويمكننا بالقاء نظرة مدققة على عناوين الكتب التى أصدرها أن نتبين مجال اهتماماته الثقافية واتجاهاته الفكرية ٠ وســـوف نوردها هنا على سبيل الحصر ، ملتزمين بتواريخ اصـــدارها ونشرها :

١ ـ كتاب بنتام « أصول الشرائع » وقد نشر ترجمته فى جزءين بمجلدين عام ١٨٩٢ ٠

٢ ـ كتاب الكونت هنرى دى كاسترى « الاســـلام : خواطر وسوانح » وقد نشر ترجمته عام ١٨٩٧ ثم أعيد طبعه فيما بعد طبعة ثانية ٠

٣ ـ كتاب ادمون ديمولان : سر تقدم الانكليز السكسونيين ، وقد نشـــر ترجمة طبعته الأولى عام ١٨٩٩ ثم أعيد طبعه ثانية فيما بعد ٠

٤ ـ ألف كتابا بعنوان « المحاماة » ونشره عام ١٩٠٠ فى طبعته الأولى ٠

٥ ـ كتاب جوستاف لوبون « روح الاجتماع » وقد نشر ترجمته عام ١٩٠٩ ٠

٦ ـ كتاب جوستاف لوبون « سر تطور الأمم » وقد نشـــر ترجمته عام ١٩١٣ ثم أعيد طبعه عام ١٩٢١ ٠

٧ ـ الف « شرح القانون المدنى » ونشره عام ١٩١٣ فى طبعته الأولى ٠

٨ ـ كتاب جوستاف لوبون « جوامع الكلم » وقد نشرت ترجمته عام ١٩١٤ عقب وفاته ثم أعيد طبعه عام ١٩٢٢ فى طبعة ثانية ٠

٩ ـ كتاب « الآثار الفتحية » وهو يضم خواطره ومحاضراته ومقالاته فى العلم والأدب والاجتماع وقد جمعه وصنفه عبد العال حمدان ونشره عقب وفاته عام ١٩١٤ ٠

١٠ ـ خطاب الأمير مصطفى فاضل الى السلطان عبد العزيز سنة ١٨٦٦ بعنوان « من أمير الى سلطان » وقد ترجمه فتحى ونشر طبعته الأولى (بدون تاريخ) ثم أعيد طبعه عام ١٩٢٢ ٠

١١ ـ ألف رسالة قانونية بعنوان « التزوير فى الأوراق » ونشرت (بدون تاريخ) ٠

وقد ذكر لطفى السيد ، الذى كان وثيق الصلة به ومن أخلص أصدقائه ، أن فتحى ترجم عددا آخر من الكتب ولم يقدر له أن يتمها أو ينشرها ، ومن هذه الكتب :

- كتاب جان جاك روسو « العقد الاجتماعى » ٠
- كتاب بورجار فى « الاقتصاد السياسى » ٠
- كتاب جوستاف لوبون « تمدن العرب » ٠
- كتاب « جمهورية أفلاطون » ٠
- كتاب سبنسر « الفرد ضد المملكة » ٠

كذلك أضاف لطفى السيد أنه اطلع بنفسه على ما اكتمل من هذه الكتابات ، وأنه ألف كتابا فى « التربية العامة » ولكنه لم ينشر[١] ٠

ونود أن نشير فى البداية أن فتحى زغلول كان صاحب رأى وعقيدة فيما يختار وينتقى ويترجم عن الفكر الأوروبى ، فلم يكن مجرد مترجم محترف أو هاو أو كان يترجم لشهرة يبتغيها ، وانما كان مؤمنا بمذهب فكرى يراه سبيلا للاصلاح ، بدليل أن المؤلفات التى عكف على ترجمتها تدور كلها فى اطار عقيدة اجتماعية وسياسية واحدة ، امتلكت عليه تفكيره وقناعاته ، بل لقد عبر عنها فيما أنشأ هو نفسه من مقالات ، لا فيما ترجم فحسب ، والتوفيق بين كتابات فتحى المؤلفة والمترجمة يوضح هذه الحقيقة أيما توضيح · ومن هنا يمكننا القول باطمئنان اننا أمام رجل صاحب مبدأ فى الاصـــلاح وصاحب فلسفة خاصة فى تناول قضايا مجتمعه ·

كذلك فان فتحى كان ذا مقدرة وكفاءة عالية فى الفهم والترجمة والتعبير « يمسك بالكتاب يقرأه أولا ثم يدخل بنظره الحاد فى طيات نفس الكاتب ، فيظهر أسرارها بقلمه العربى المبين · ومن المترجمين من يترجم الألفاظ تحمل معانيها خالية من روح الكاتب وحرارته ، فلا يكون لها التأثير المطلوب ، الا ترجمات فتحى فانك تقرأ فيها المعانى والأغراض كأنك تقرأ كاتبها من غير فرق ·· أما نحوه فى الترجمة ــ والحديث مازال للطفى السيد ــ فليس هو الالتزام الحرفى بالأصل ، ولا مجافاة الأصل ، ولكن نحوه بين ذلك وسط مرضى ، أما أسلوبه فهو عربى خالص لا يعنى فيه بفضلة لزخرف المحسنات اللفظية . ولكنه مع ذلك متين الرصف ، ظاهر الرشاقة جذاب ·· » وهذه كلها حقائق يستطيع أن يلمسها قارىء تلك الكتب بسهولة وبغير عناء ·

وقد وصف أمير الشعراء أحمد شوقى ترجمات فتحى وصفا رائعا جديرا باقتباس هذه الأبيات منه :

ومعـــربات كالمنـــار وانهـــا   لزيادة فى رأس مـــال الضـــاد

واذا المعرب نال أسرار اللغى   روى عبـــادا من اناء عبـــاد

العلم عنـدك والبيـــان مواهب حليتهـا بشـــمائل الامجـاد
ومن المهـــانة للنبوغ وأهـــله شـــبه النبوغ تراه فى الأوغاد
فتحى رثيتك للبـــلاد وأهلهـا ولرائح فـوق التراب وغـاد
وســـبقت فيك القـائلين لمنبر عال عليهم خـــالد الأعـــواد

التمدن والتغريب :

لقد قدم فتحى لبعض ترجماته بمقدمات طويلة شرح فيها أسباب اختياره لهذا الكتاب أو ذاك للترجمة ، وحاول تطبيق الأفكار التى طرحها المؤلفون ، حول أسباب انحطاط الأمم وسر تأخرها وعوامل تمدنها وتحديثها ، على أوضاع المجتمع المصرى ، فكان المصريون نصب عينيه وهو يكتب ، كما أبدى اقتناعا شديدا بما أوردوه من أفكار تبناها هو نفسه ، وأبدى اعجابا شديدا باتجاهاتها ، فقدم مثلا لكتاب سر تقدم الانجليز بمقدمة بلغت سبعا وأربعين صفحة . وكذلك قدم لكتاب « الاسلام : خواطر وسوانح » لهنرى دى كاسترى بمقدمة بلغت ثمانى صفحات . كما قدم فتحى زغلول لكتاب من تأليف « محمد عمر » الموظف بالبوستة المصرية ، بعنوان « حاضـــر المصريين أو سر تأخرهم » على غرار كتاب ديمولان الذى ترجمه فتحى ، وقد نشر عام ١٩٠٢ بمقدمة هامة بلغت خمس صفحات . بقلم فتحى زغلول . وينسب البعض الى أحمد فتحى زغلول ذاته تأليف هذا الكتاب ، ويعتبر أن محمد عمر هذا شـــخصية وهمية لا وجود لها ، على اعتبار أنه لم يعرف ضمن كتاب العصر ولم يترك أثرا آخر يدل عليه أو يعرف به(٢) .

ولا نعتقد بدقة هذه الفكرة لأن فتحى لم يكن لديه سبب يمنعه من التخفى وراء اسم آخر ، كما أن الأفكار التى وردت بالكتاب تمثل

تفصيلا لما أورده فتحى فى مقدمته الطويلة لكتاب ديمولان ، وكان ذلك ادعى لنسبة الموضوع الى نفسه ، كما أن أحدا مـ نأصدقاء فتحى لم يشر الى هذا المعنى من قريب أو بعيد فيما رثوه به ، أو فيما أعادوا طبعه من كتبه ، وكان الكتاب بحق جديرا باعادة الطبع · خليقاً بأن ينسب الى فتحى لو كان قد ألفه بالفعل ، يضاف الى ما سبق أن محمد عمر عقد فصـــــلا قرظ فيه كتاب « ســـر تقدم الانكليز السـكسونيين » « لسـعادة العالم الفاضـل أحمد فتحى زغلول بك »(٣) ·

وعموما فان بوسعنا القول بأن موضـوعات هذه الكتب والترجمات تدل بشكل واضح على اهتمام فتحى زغلول بقضـية « تحديث » مصر اهتماما استوعب جل اهتماماته ونشاطاته الفكرية وكانت هذه القضية قد طرحت على نحو جديد وبشكل ملح ، مع انبعاث الحركة الوطنية المصرية منذ العقد الأخير للقرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ، وساهم فيها المشـتغلون بالثقافة والفكر ، فى الصحف ومؤسسات التعليم ، على اختلاف مشاربهم واتجاهاتهم ، كما أدلى فيها رفاق فتحى من أنصار وتلاميذ محمد عبده ، من ذوى الاتجاهات التى وصفت « بالعصرية » ·

فكانت محور اهتمام لطفى السيد ، داعية القومية المصرية ، بالمعنى الاقليمى ، وداعية المذهب اللبرالى ، أو الحرى كما كان يسميه ، كما شغلت الجانب الأكبر من تفكير قاسـم أمين ، الذى قدم أفكارا جريئة خاصة بتطوير وتمدين المجتمع والمرأة ، على النمط الأوروبى ، أثارت معارضة حادة فى حينها ، كما أثارت جدلا عنيفا ، وها هو فتحى زغلول ، ثالث الثلاثة من شيعة الامام ، يبدى اعجابه الشديد بكتابات صديقه قاسم وخاصة بكتاب « تحرير المرأة » الذى وصف قاسم بأنه : « جمع فيه من شوارد الأفكار ورفيع الأقوال ما يعجب به كل محب لخير الأمة ، طالب لنفعها ، ولكنه برهن على أن علة تأخرنا سوء حال النساء وعدم تربيتهن وتعدى الرجال على

حقوقهن ، فكان هذا النفور من كتابه لمجيئه على ما يخالف ما ألفته النفوس وارتاحت اليه ، ولعل سر تقدم الانكليز « يسلم من مثل هذا الانتقاد ٠٠ »(٤) ٠

لقد كان فتحى يرى ، على نحو ما مر بنا ، أن أول خطوة ينبغى لمصر أن تخطوها لتطوير مجتمعها وتحديثه ، تتمثل فى ضرورة افادتها من تراث الحضارة الغربية ، فى مجالها السياسى والاجتماعى ، وكان يرى أن أول خطوة فى هذا السبيل معرفة أدواء الأمة وتشخيص أمراضها وأسباب تأخرها واضمحلالها ، ثم البحث عن سر تطور وتقدم الأمم الأوروبية ، وفهم روح هذا التطور ومضمونه ، للافادة من التجارب والنماذج المتفوقة ٠

ومن هنا كانت « الترجمة » فى تقديره هى الطريقة المثلى لذلك، وكان صادقا فى قناعته ، فأقدم عمليا على الاسهام فيها ، فقدم ترجمات للعديد من المؤلفات الأوروبية ، الفرنسية بوجه خاص ٠ مستعينا بمقدرته فى اللغة وتمرسه بفن الكتابة ، فنشر ست ترجمات على نحو ما رأينا ، ثم ترجم كتبا خمسة أخرى لم يقدر لها أن تنشر ٠ وكما هو واضح من الموضوعات التى ترجمها ، فانها تدور كلها تقريبا حول استكشاف واستكناه سر تقدم الغرب الأوروبى ، وتناقش فلسفة التطور على النمط الأوروبى ، كما تتناول الفكر السياسى والاجتماعى على المذهب اللبرالى ٠ ولم تكن هذه الترجمات ، التى قدمها فتحى زغلول ، غاية فى حد ذاتها ، على الرغم من خطورة وأهمية موضوعاتها ، وانما كانت اسهاما عمليا ومباشرا ، فى قضية التحديث والعصرية من وجهة نظره ، ولأن فتحى لم يمس التقاليد والأعراف الاجتماعية الموجودة ، وكذلك القيم الدينية لدى الناس ، كما أن اسهامه انصب بشكل جوهرى على الترجمة ، بما فيها من القدرة على نسبة الافكار لأصحابها عند

الضرورة ، فان كتابات فتحى لم تلق المعارضة والنقد الذى لقيه أنداده ٠

كانت قضيته الأولى هى الأمة المصرية التى لن يتيسر لها أن تتخلص من آلامها وتبرأ من أمراضها الا اذا عرفت أسبابها وأحاطت بموجبات الضعف فيها « فأول واجب على من يطلب مصلحة أمته أن يبين لها مواضع الضعف الملم بها ، حتى اذا تم تشخيص الداء سهلت معرفة الدواء » ولأن النموذج الغربى فى الحضارة كان دائما ماثلا أمام وعيه فقد أضاف : « وليس هناك من ينكر أننا متأخرون عن أمم الغرب وأننا أمامها ضعاف لا نستطيع مغالبتها ولا يسعنا أن نفوز ببغيتنا مادمنا ودامت على هذه الحال ٠٠ » ٠ بل أن فتحى يترجم ديمولان لأن الوقائع التى أوردها عن الفرنسيين تنطبق على أوضاع المصريين « لاتفاق البلدين فى كثير من العادات والاخلاق والأفكار التى عنى المؤلف ببيان جهات النقص فيها ، اللهم الا أن الصغيرة لديهم كبيرة لدينا والاستثناء فيهم قاعدة عمومية عندنا ٠٠ »(٥) ٠

لقد آلم فتحى أشد الألم ما رأى عليه حال أمته ، وما أصاب روح الشرق منذ اجيال ، مما أمات ملكة حب الاستطلاع « واستحكم فى عقولنا حتى عم الفتور وصار كأنه حالة فطرية ، فحسبناه خلقا من اخلاقنا ٠٠ » ويستدير فتحى ليبصر الانجليز الذين يحتلون مصر ٠ والى عمالهم الذين يقيمون فيها ، وكيف انهم ينتمون لذلك الجنس المتفوق حضاريا ، الذى ألف ديمولان كتابه لبيان السر فى تقدمه وسيادته فى الوجود ، ويعلق « وهم ماداموا فى بلادنا يجب علينا أن نقارن بين أحوالهم وأحوالنا ، وعاداتهم وعاداتنا ، ومعارفهم ومعارفنا ، وحركتهم وحركتنا ، وكفايتهم وكفايتنا وحولهم وحولنا ، وثورتهم وثورتنا ، يجب علينا أن نقارن بين هذا كله وبين ذلك كله ، لأننا مضطرون الى معاشرتهم ومعاملتهم والاحتكاك معهم

فى جميع أمورنا ، حتى اذا صح نظرنا وعرفنا الأمر على حقيقته وتشبعت نفوسنا بما هو واقع اهتدينا الى واجبنا القومى .. فأخلق بنا أن نتعظ بمن هم أعظم منا .. »(٦) .

لقد نظر فتحى زغلول الى حال الأمة وحكومتها ، فرأى أنها أحوج ما تكون الى معرفة المثل الأعلى الذى ينبغى الوصول اليه فى نظمها السياسية والاجتماعية ، ورأى فوق ذلك أن أول خطوة يخطوها المصلحون العلميون هى نقل العلم الى أوطانهم بالترجمة . وأن هذه الطريقة هى ألف باء النهضة العلمية فى كل أمة وفى كل زمان(٧) ولعل هذا يفسر كيف أنه شرع فى ترجمة كتاب روسو عن « العقد الاجتماعى » بعد عام واحد من تخرجه من مدرسة الحقوق بباريس .. ثم استمر فى الترجمة والنشر للنظريات السياسية الأوروبية ، مما فتح الباب لنهضة فكرية على أسس سياسية ، وكانت ترجماته تعكس رغبة صادقة فى أن تتقدم الأمة من خلال قوانين التطور ، كما تعكس ثقته فى قدرتها على تحقيق ذلك ، فأحدث بها تأثيرا قويا فى العقل المصرى(٨) .

ويضيف لطفى السيد بأنه اذا كان يرى أن البداية الطبيعية هى نقل العلم الى البلاد ، فانه يعتقد أن البدء فى الارتقاء الاجتماعى والسياسى لا يكون بأخذ ثمرات آخر تطور للمبادىء الاجتماعية والسياسية فى الأمم التى تمدنت قبلنا ، وانما بالافادة من الأصول والارتقاء بها .. وخير المبادىء الاجتماعية والسياسية فى نظره هو ما كانت بينها وبين طبائع الشعب وعاداته نسب ، تكمل ما فيها من نقص وتقوم ما بها من اعوجاج(٩) . وفى المعنى الأخير دلالة عميقة على رغبة فتحى فى عدم تجاهل أوضاع المجتمع وتقدير طبيعته الخاصة ، والعودة الى الأصول التى أفاد منها الأوربيون ذاتهم ، والتى نمت فى تربة تختلف فى طبيعتها عن التربة المصرية للافادة منها بما يلائم تلك الطبيعة .

وقد كان فتحى يدعو الى التمصير ، فلم يكن يدعو الى نقل منجزات الحضارة الأوروبية على عـــلاتها ، وانما كان يقدم منها النماذج والمذاهب للافادة منها بما يتواءم مع طبيعة مصر والمصريين، فما كان يرضى لوطنه مكانة دنيا فى صراع المدنية ، وكان يتعجب بألم من الوضع الذى انتهى اليه المصريون ، حيث أصبحوا وليس منهم « الا الفعلة والحمالون ومنفذو ارادة الأجنبى ، نشقى ليسعد ونموت ليحيى ٠٠ وفى كل قســـم من مصانعنا رئيس من الافرنج ، والكل بعد ذلك مصريون ، هذه المبانى والقصور شيدت بيد المصريين لكن بمشـــيئة الأجنبى ٠ وكل شـــىء فيها بعد ذلك من صـــنع الأجنبى »(١٠) ٠

داعية التحـــررية :

اما بالنســـبة للمذهب الفكرى والاجتماعى الذى تبناه فتحى زغلول واعتنقه وبشر به ، فهو المذهب التحررى (اللبرالى) ومن هنا دارت ترجماته ومقالاته مستهدفة نشر المبادىء التحررية ، داعية لاتخاذها المثل الأعلى ٠ وفى فترة مبكرة من نشاطه أدرك أهمية العقد الاجتماعى لروسو Rousseau (١٧١٢ ـ ١٧٧٨) الذى كان قد ألفه سنة ١٧٦٢ فأقدم فتحى على ترجمته ليوضح به حقوق الأمة وحقوق الفرد وسلطات الأمة وحدودها ٠ وكان روسو فى هذا الكتاب يرى أن العقد الاجتماعى ليس عقدا بين أفراد ولا بين الأفراد والسلطان ، وانما كان كل واحد يتحد مع الكل ، فالعقد معقود مع المجموعة ، وكل شريك يتحد مع الكل ولا يتحد مع أى شخص بشكل خاص ، انه لا يخضع الا لذاته ومن ثم يبقى حرا ٠٠ كما يعتبر روسو أن سيادة الشعب هى خير ضمان للحقوق الفردية ، والانسان يمتلك حريته باطاعة القوانين ، والحكومة فى نظره لا تلعب الا دورا تابعا ، ويميز روسو بين السلطان ، أى الشعب ، الذى يضـــع

القوانين ، وبين الحكومة ، التى هى مجموعة من الأفـــراد تنفذ القوانين(١١) ٠

وبرغم أن ترجمة فتحى للعقد لم يقدر لها أن تظهر بكل أسف ، وكان قد قطع فيها شوطا كبيرا ، الا أن اقدامه على ترجمتها يعد فى حد ذاته ذا دلالة خاصة على فهم مكونات فكره وعناصره ، وما من شك فى أن الكتاب ساهم فى تكوينه ٠ وقد أكد فتحى ايمانه بالمذهب اللبرالى حين قدم بعد ذلك ترجمة لكتاب بنتام Bentham (١٧٤٨ ــ ١٨٣٢) عن أصول الحقوق والواجبات ، أو ما اسماه بمبادىء الأخلاق والتشريع (١٧٧٩) وقد ترجمه فتحى تحت اســم « أصول الشرائع » وكان بنتام من دعاة الحرية الاقتصـــادية فالدولة فى نظره وظيفتها توفير الأمن والطمأنينة فى حيازة الثروة بعد تملكها ، كما أن للدولة وظيفة قضائية تقوم بها ، ولكن وظيفتها الاقتصادية ينبغى أن تكون مختصـــرة الى أقصى حد ٠٠ كما أن الديمقراطية فى نظره ضرورية للتوفيق بين المصالح الفردية للحاكم والمصالح الفئوية للارستقراطية المالية(١٢) ٠

وقد أكد فتحى قناعته بالمذهب أكثر وأكثر حين ترجم كتاب ديمولان ، وهو مفكر لبرالى ، سر تقدم الانكليز السكسونيين ٠ وطلب فتحى الى المصريين ، فى مقدمة طويلة ، ألا يفنوا شخصيتهم فيفنى وجودهم ، كما ذكر أن الحكومة ينبغى أن ترجع اختصاصاتها الى الحد الأدنى ، وتقلل عمالها الى الحد الأدنى ٠ وترد بعد ذلك الشبان الى المهن المستقلة التى تقتضى الهمة الذاتية(١٣) ٠

وقد نادى فتحى بتقليص دور الحكومة الى الحد الأدنى فكتب متألما : لقد ضعفنا حتى أصبحنا نرجو كل شىء من الحكومة فهى التى نطالبها بحفظ حياتنا ، وخصوبة أرضـــنا ، وترويج تجارتنا

وتحسين صناعتنا ، هى التى نطلب منها أن تربى الأبناء وتطعم الفقراء وترزق العجزة ، وتنفى أسباب البطالة وتحفظ الاخلاق ٠٠ هى التى نطالبها بتعويض ما نقص من ارادتنا وتقويم ما اعوج من سيرنا والسهر على مصالح كل واحد منا ٠٠ لا ريب أننا بهذا الزعم قد ضللنا السبيل فانما الحكومة وازع لا يكلف الا ما اقتضته طبيعته، وشأن الحكومات فى الأمم تأييد النظـــام وحفظ الأمن واقامة العدل وتسهيل سبل الزراعة ، ومعاهدة بعضهم بعضا على ما يضمن حرية التجارة وتشجيع أهل الصنائع والحرف كما تقتضـــــيه المصـــالح المشتركة ٠٠ وبالجملة فالحكومة وازع عام لا واجب عليه الا الأمن العام مما يدخل تحته جميع الناس(١٤) ٠

لقد كان فتحى مؤمنا بأن تدخل الحكومة يشكل خطورة على حرية الأفراد ومن ثم ينبغى أن تطلق للأفراد حرية التعبير وحرية النشاط الاقتصادى والاجتماعى ، فانها اذا تدخلت تعوق همم الأفراد عن العمل وعن سعيهم فى طلب مصالحهم « وكلما تدخل الموظفون زاد عدد الوظائف . وزيادة الوظائف تجر زيادة الموظفين ، وهذا حال ضرره عظيم » بل أكثر من هذا يعتبر ــ مع ديمولان ــ أن تدخل الحكومة ليس من الوطنية الصحيحة « التى تفضل استقلال الشخص وتحميه من تعديات الحكومة وتوسيع نطاقها ضد مصلحته ٠»(١٥) ٠

فى اطار هذه القنــــاعة بدور الحكومة وأهمية تحديده الى أقصى حد ممكن . لتنمية الروح والملكات الفردية ، واطلاق كافة الحريات لها ، درس فتحى زغلول الفيلســــوف الانجليزى هربرت سبنسر Spencer (١٨٢٠ ــ ١٩٠٣) الذى كان ايمانه بالعلم طاغيا ، وكان داعية كبيرا للمذهب اللبرالى ، روج له فى كتاباته الشهيرة : التوازن أو الســـكون الاجتماعى ، والمبادىء الأولى ، ومبادىء سيولوجيا الاخلاق ، ثم كتابه « الفرد فى مواجهة الدولة » الذى نشره عام ١٨٨٤ . وقد تصدى فتحى لترجمة هذا الكتاب تحت

عنوان « الفرد ضد المملكة » وان لم يقدر له أن يتمه وينشره · ومن المعروف أن سبنسر فى كتابه هذا قد شهر سيفه بحدة فى مواجهة مساوىء الدولة والحكومة « اللتان تنحشران فيما لا يعنيهما » كما أخذ فى تمجيد المبادىء الفردية ، ونادى باكتفاء الدولة بمسئولية القضاء ، بل أكثر من هذا نادى بأن الحكومة يجب ألا تكون شيئا آخر غير « لجنة ادارة »(١٦) ·

اقتنع فتحى ، مع لوبون ، بأن سبيل التمدن والحضارة والرقى يتمثل فى بعث الهمة الذاتية الفردية ، واشعال روح المخاطرة ، واطلاق ملكات الأفراد للتنافس والتسابق ، ومن ثم لا ينبغى أن تفنى الروح الفردية فى اطار المجاميع الانسانية(١٧) · ودافع فتحى عن عنصر « المكافأة » وعن « التنافس » فى مجال التزاحم الانسانى ، وتحدث عن تقدير البلاد المتمدنة لهما ، وما نتج عنهما من نمو الصنائع والفنون وروح الابتكار والاختراع(١٨) ·

موقفه من الاشـــتراكية :

من الطبيعى أن كاتبـــا يعتنق مذهب اللبراليين الأوروبيين ويروج له باعتباره المثل الأعلى الذى يجب أن يسود فى وطنه ، من الطبيعى أن يكون من خصوم المذهب الاشتراكى ونقاده ، وأن يؤمن بفكر الصفوة أو النخبة ، قائدة الجماهير ، وربما كان هناك شبه اتفاق بين أنصار المذهب اللبرالى ، من أنصار وتلاميذ محمد عبده على التلويح بخطورة الفكر الاشتراكى وضرورة نقده وتفنيده ، وذلك أمر يتفق على كل حال مع موقفهم الاجتماعى النابع من وضـــعهم المتميز ومن انتماءاتهم ·· وقد برر لطفى السيد اتجاه صديقه فتحى زغلول قائلا : ولعل فتحى باشا أشفق على حرية الأفراد وتربية الأمة من الميل الظاهر الى ما يشـــبه الاشتراكية ، فان الناس لم

يقتصروا فى طلبتهم على حقوق الأفراد من الحرية ، وحق الشعب فى السلطة ، بل أخذوا مع ذلك يطالبون الحكومة أن تقوم لهم بكل شىء ، والفرد لا شىء ٠٠ الاشتراكية قد تكون معقولة اذا كان للأفراد شأن فى تنصيب الحكومة ، والا فانما هى اشتراكية معكوسة النتائج ٠ فأخذ فتحى عن بعد يهدى الأفراد الى وجوب التمسك بشخصيتهم ويبين لهم أن التربية الشخصية هى التى كانت سر تقدم الانكلين السكسونيين(١٩) ٠

وفى مقدمة فتحى لكتاب ديمولان يذكر أنه « أجهز على مذهب الاشتراكيين بساطع البرهان وأقوى الحجج ، وفند أقوال أصحابه تفنيدا يخضع له المكابرون » وكان ديمولان قد عقد فصلا مطولا يعرض فيه لأصل نشأة المذهب الاشتراكى وأبان فيه اختلاف أصحاب المذهب فيما بينهم(٢٠) ٠

وتابع فتحى بصبر وداب انتقاده للمذهب على لسان من ترجم لهم ، فنقل عن جوستاف لوبون وصفه للاشتراكية أو ما اسماه « بالمذهب الخيالى » ، وأن الناس الآن أصبحوا على يقين من خطئه، رغم أنه قلب الدنيا رأسا على عقب ، وأقام فى القارة الأوروبية ثورة ارتج الكون منها ٠٠ كما أنه لم يدخل حتى الآن فى دور السقوط ، بل لايزال ينمو ويعظم ٠٠ ويفند دعوى الاشتراكيين بأن مذهبهم هو الوسيلة لاسعاد أمم الغرب ، ويرى أنه يمشى بهذه الأمم نحو الاستعباد ٠ وقد استنكر لوبون ما تثيره كلمة « اشتراكية » فى مخيلة العملة (العمال) فى هذا العصر من صور ساحرة تأخذ بمجامع النفس رغم سذاجتها ، تصور الجنة وقد تساوى فيها الناس فتمتعوا بالسعادة الكاملة فى ظل الحكومة ٠

كذلك فقد ترجم فتحى زغلول عن لوبون قوله بأن الاشتراكية فى عصرنا من اكبر الأخطار التى تهدد الأمم الأوروبية فى وجودها .

وهى لا محالة مجهزة عليها ، وقد تنقضى بسببها الحضارات الغربية .. لقد أصبحت دينا جديدا لكل من شقت عليه الدياة . وشعر بوقر الأحوال الاقتصادية الناشئة عن حضارة هذا الزمان .. انها تمهد السبيل لغارة البربر التى تهددنا بالخراب(٢١) .

وعندما نشر لوبون خلاصة تأملاته وافكاره ودراساته فى كتابه « جوامع الكلم » ترجمه فتحى زغلول ، وكان يتضمن خلاصة موقفه من الاشتراكية ، التى رآها غاية مبدأ المساواة القصوى ، وما هى الا حالة ذهنية أكثر من كونها مذهبا ، وقد فسر لوبون سرعة انتشارها بانها مبهمة ، وبأنها صورة من صور مذهب « الحكوميين » ويعود يبرر تكاثر انصارها بقسوة بعض أصحاب المال وضعف اخلاقهم ، ويؤكد على أن الاشتراكية تبشر بالمساواة فى التسخير وأن ذلك ليس خيالا قويا يأخذ بلب الأمم طويلا . ثم يبدى اعتقاده بأن من لوازم الحضارة فى هذا الزمان ايجاد منبوذين يكثرون يوما بعد يوم ، لا ينطبعون على عصرهم ولا ينفكون عن محاربته ، أولئك هم السواد الأعظم بين الاشتراكيين . وأخيرا أضاف أن الانسان ما خرج من الهمجية الى الحضارة ، الا بهروبه من مساواة العصور الأولى ، مما ترمى الاشتراكية الى ارجاعنا اليه(٢٢) .

وهكذا كان موقف فتحى زغلول من المذهب الاشتراكى ، وهو موقف ينبع أساسا من اعتناقه للمذهب التحررى أو اللبرالى . ويتفق بالضرورة مع انتماءاته الاجتماعية ، فكان من نقاد الاشتراكية كاتبا ومترجما وهو موقف يتسق على كل حال مع ما يعتقد وما يتبنى من أفكار .

النخبة والديمقراطية :

كان فتحى زغلول ينتمى ، على نحو ما مر بنا ، الى صفوة

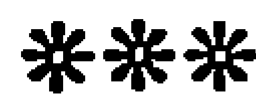
المثقفين المصريين ، ومن صفوة أبناء الأعيان ، الذين يمثلون النخبة القوية ماديا وأدبيا ، ومن ثم كان يتمتع بمكانة اجتماعية مرموقة ، وقد أثر ذلك فى قناعاته الفكرية فيما بعد ، فترجم المذهب التحررى أو الفردى ، وكان من نقاد الاشتراكية ومن خصومها ، وآمن ايمانا راسخا بمفهوم الصفوة وفكرها ، وتفوقها ، وترجم قول لوبون « بأن رقى الأمة يرتبط بنخبتها وقوتها بأواسطها » فتجاهل بذلك جموع الكادحين والمعدمين وقضاياهم ·· كما ترجم أن قوة الأمة لا تقاس بعدد أهلها ، بل بقيمة « الطبقة الممتازة » فيها ، فنخبة الأمة هم صناع حضارتها ، واذا فقدتهم حاق بها الفقر وتولتها الفوضى ·

بل أكثر من هذا كان يعتقد أن هذه النخبة الممتازة تتوارث الملكات العقلية ، كما تتوارث الشرف ، وقد قاده هذا الى وصف طبقة العامة « بالغوغائية » وأضاف « أن الخاصة تبنى والغوغاء يهدمون » · وفى مجال بحثه عن الفروق التى بين الأوربيين وبين الشرقيين ، رأى أن الفارق الأساسى هو اختصاص الأوربيين بفريق راق من العلماء النبغاء ، تجتمع فيهم مقدرة الشعب كله أولئك الذين اذا أخرجناهم من كل جيل سقط مستوى الأمة العقلى سقوطا كبيرا ·· فالى هذه الطائفة يرجع الفضل كله فى الرقى الذى وصلت اليه العلوم والفنون والصناعة » ·

بل انه يميز بين عناصر الحضارة على أساس طبقى فيذكر أن من المبادىء التى يقوم عليها بناء الحضارة ما تبقى مزيته للطبقات الراقية ، كالتى تقوم بها الفنون أو الفلسفة ، ومنها ما ينزل حتى يبلغ أسفل الطبقات كالدين والسياسة على الأخص ، ولكنها لا تهبط الى هذا الحد الا مشوهة جدا ، واذا بلغته عظم تأثيرها فى النفوس الساذجة التى لا قبل لها على البحث فيها(٢٣) ·

ولا تحسبن أن فتحى زغلول قد عبر عن هذه الافكار ترجمة

عن لوبون فحسب ، وانما كان يعبر عن نفس الأفكار بمقالاته هو ، ففى المقدمة التى كتبها لكتاب لوبون كان يعبر عن عامة الناس بلفظ « الطبقات النازلة » وغالبا ما كان يقرنها بأوصاف الطيش ، وبعدم اعتبارها لقيمة « الطبقات العالية » من الأمة ، ويصف الأخيرة بأنها بماثبة الروح من الجسد ، لأنها سياج الاخلاق ، ومرجع صيانة العادات ومشخص الأمة فى حياتها وشعورها (٢٤) . كما كان فتحى يستخدم لفظ « النبلاء » فى القرى والمدن ليعبر عن مواقف وسلوك الطبقات العالية(٢٥) .



ولعل هذا الموقف الفكرى يقودنا الى التساؤل عن رأى فتحى فى الديمقراطية ، وأول معطيات هذا الموقف تتمثل فى قراءته وترجمته لكتاب روسو الشهير « العقد الاجتماعى » تلك الترجمة التى لم يقدر له نشرها ، وثانى هذه المعطيات ايمانه بفلسفة المذهب الفردى أو اللبرالى ، بما يقود اليه من ديمقراطية سياسية ، ولكننا لا نعثر فيما أنشأ فتحى على مقال واحد بشكل مباشر يعبر عن مفهومه للديمقراطية ، رغم اهتمامه الدائب بقضايا الفكر السياسى والاجتماعى وبتطور الأنظمة الاجتماعية ، ولعلنا لا نغفل تكريسه لدور النخبة القائدة فى المجتمع وضرورة انفرادها بالحقوق السياسية بطبيعة الحال .

والفحص الدقيق لترجماته يضيف معطيات جديدة لذلك الموقف، فقد نقل عن لوبون ايمانه بأن الديمقراطية التى تساوى بين الناس فى الحقوق السياسية محض وهم ، كما أن الديمقراطية عند العامة شىء وعند المتعلمين شىء آخر ، وقد عبر لوبون عن ذلك فى كتابه « جوامع الكلم » بقوله : ان أول ما يفهمه العامة من الديمقراطية المساواة ، فيقولون بالاخاء بين الطبقات وليس لهم أقل عناية

بالحرية ، أما المستنيرون فظمأهم الى الحرية شديد وميلهم الى المساواة قليل ، فالمساواة نظرية صناعية ولدت الكراهية لكل تفوق يبنى عليه مجد الأمة ٠

وقد ترجم فتحى عن لوبون تكريسه لفكرة التفاوت الاجتماعى ضاربا مثلا بالطبيعة التى لا تعرف المساواة ، وأن ما كان من رقى فسببه التفاوت المتزايد كل يوم ٠٠ وكذلك لا تميل الحضارة الى التسوية بين الناس ، بل هى تزيد فرجة الفروق دائما ٠ كما اعتبر لوبون كذلك أن من أكبر أوهام الديمقراطية « تخيلها أن التعليم يسوى بين الناس ، وهو لا يصلح فى الغالب الا فى تجسيم الفروق »(٢٦) ٠

والأخطر من ذلك كله أن فتحى زغلول نقل عن لوبون فى كتابه « روح الاجتماع » هجومه على الممارسة (الجماعية) الديمقراطية للسلطة واعتبر ذلك مفضيا الى الانقلابات والثورات التى تعوق التطور الحضارى « فلو أن سلطة الديمقراطية بلغت أيام اختراع الصنائع الميكانيكية واكتشاف البخار والسكك الحديدية ما بلغت الآن ، لاستحال تحقيق هذه المخترعات ، أو لكان ثمنها الكثير من الثورات ، وقتل آلاف النفوس ، فمن حسن حظ الحضارة أن سلطة الجماعات لم تبدأ فى الظهور الا بعد أن تم تحقيق الاكتشافات العظيمه العلمية والصناعية ٠٠ »(٢٧) ٠

وفى نفس المجال نقل فتحى عن الكاتب الفرنسى جول لومتر تقريظه لكتاب ديمولان عن سر تقدم الانجليز ، الذى نشرته صحيفة الفيجارو الفرنسية والذى ذكر فيه « ٠٠ يلزمنا أن نلغى طريقة الانتخاب التى يتساوى فيها العظيم بالحقير ، والجاهل بالعالم ، والزارع بأهل البطالة والكسل ٠٠ »(٢٨) ٠

وكان فتحى زغلول يحذر من تولى من اسماهم بالجهال الأغبياء السلطة « فالأمم تقع فى حضيض التأخر بالخروج عن الحد والشطط فى القصد والجهل التام بطرق المنافع والمضار ، هذا ان كان فيهامن الجهال الاغبياء من يكون لهم نوع من السلطة ، اما بالصدفة أو بالتعسف والاعتساف ٠٠ »(٢٩) ٠

وفيما يتعلق بالحكم الدستورى لم نجد مقالا واحدا يوضح موقف فتحى زغلول من ذلك ، وبرغم هذا كان فتحى مؤمنا بالدستور الذى هو أبو القوانين جميعا « فاذا انسل القوم من سلطات القانون عاجلهم الاستبداد »(٣٠) ٠وحين ترجم فتحى زغلول خطاب الأمير مصطفى فاضل الى السلطان عبد العزيز الذى رفعه اليه عام ١٨٦٦، كان الخطاب يتضمن دعوة الأمير للسلطان بأن يهب الأمة دستورا صحيح الجسم ، رحيب الصدر ، خصيب التربة ، وأن يحفه بالأمان ، ويحطه بمايضمن الاخلاص فى انفاذه والأمانة فى الجرى عليه ، وبما يصونه من العبث على مر الأيام « فما قيد الدستور غير الهوى . وما انتزع من الملك الا حرية الخطأ فى سياسة الرعية ٠٠ يكفل الدين، ويصون الملك ، ويحفظ على الأموال أهلها . وينزل السكينة فى قلوب الأمة ، ويصير المرء حرا كريما ٠٠ »(٣١) ٠

ولكن هذه المقتطفات من ترجمات فتحى لا تشفع له قصوره عن مطالبة خديو مصر بالدستور ، وكانت الحركة الوطنية تضع الدستور على رأس مطالبها ، كما كانت تموج بحركة عظيمة تطالب بدستور كامل وبمجلس نيابى تام السلطة ، وترفع شعار « الدستور يا أفندينا » ٠

التربية والتعليم :

وكان اهتمام فتحى زغلول بالتربية كبيرا ، بل لقد كانت قضية

تربية الشعب وتثقيفه تحتل جانبا بارزا فى نشاطاته واسـهاماته النظرية ، كما كان فتحى « معلما مربيا » فى مقـالاته ذات الطابع الاصـلاحى ، تدل على هذا المعنى آثاره العلميـة فى التأليف والترجمة • ويوم احتفل اصدقاؤه به وبكتبه فى حفل أقاموه له بدار الجامعة المصرية ، هتف من على منبرها فى المجتمعين من قادة الفكر والعلماء والأدباء « علموا الأمة •• علموا الأمة •• » ولفرط اهتمامه بمسألة التربية ، ألف كتابا جعل عنوانه « فى التربية العامة » وقد ذكر لطفى السيد أنه أتم تأليفه وان لم يتيسر طبعه ، مما ضيع علينا أثرا فكريا هاما •

وكان فتحى على كل حال من قراء الفيلسوف هربرت سبنسر ، الذى كان مؤمنا بالعلم بشكل حاسم • ولما كانت قضـية تحديث وتمدين المجتمع المصرى هى محور نشاط واهتمام فتحى ، فقد كان مؤمنا بأنه « لا حياة الا بالحضارة ، ولا حضـارة الا بالعلم • فالعلم هو سلم الأمم الى حضارتها ، فهو كاشف ظلمات الجهل ، ومسدد الآراء ، ومنجح كل مجهول ، هو الذى اخترق الأرض فأخرج مكنوناتها ، وحكم المادة فاستلب منها كنوزها ، وتسلط على البحار فسادها ، ورمى الى الجو فحلق فى القبة الزرقاء طالبا للناس علوا وكمالا ، وقرب الابعاد فأضاف الى الوقت أوقاتا ، وضم الى حياة الانسان حياة وحياة •• »(٣٢) •

وحين ترجم فتحى كتاب لوبون ، أنشـأ فى مقـدمة تحليلية يستعرض أسباب ضعف المجتمع المصرى ، ومحللا أسباب تأخره فى شتى المجالات ، فذكر اننا ، ضعاف فى العلم ، اللهم الا فى علم مداره الجهل بحقائق الأشياء فى الوجود ، أما المفيد منه فقد اقتصرنا فيه على ما يختص بعلاقة الانسان بربه ، والباقى أخرجناه عن معناه الصحيح وحكمنا عليه بالاعدام ، وشهرنا بالمشتغلين به حتى أمتنا روح التقدم » ثم تسـاءل فى اسـتنكار : أين منا المؤرخ والنباتى

والطبيب والكيميائى والمهندس والطبيعى والأديب والمنطقى واللغوى وعالم الاخلاق والحكيم والفلكى وعالم الزراعة وغير هؤلاء ؟ ! .

وبعد أن شخص داء الأمة شرع يحدد الدواء الذى يتركز فى « التربية ونشر المعارف والعلوم ، فعلينا بها بما بقى فينا من الشعور وما ترك لنا من الاختيار فى العمل ، قبل أن يتم الانحلال ويتعذر علينا القيام .. فنحن أحوج الى التعليم ، وأشد افتقاراً الى التربية .. »(٣٣) .

لم يكن فتحى زغلول متخصصا فى فنون التربية والبيداجوجيا ، وانما كان صاحب قضية أعم ، يرى أن التربية والتعليم يمثلان حيزا واضحا فيها ، ومن ثم اعتقد أن فى نشر التربية والمعارف علاجا لكل أمراض المجتمع المصرى ، وقد اعترف فى تقديمه لترجمة ديمولان . بأن من بين أهدافه تنبيه الأفكار الى حالة مصر ، ومقارنتها بحالة الأمة الفرنسية ، ليوقن المصريون ، بعد علمهم بما هى عليه من تقدم وعمران ، أنهم أحوج من الفرنسيين الى التعليم وأشد افتقارا الى التربية ، وقد أدى الكتاب الى الاعجاب بنظم التعليم الانجليزية ، وقاد ذلك الى ظهور عدد من الكتب التى حاولت أن تشخص الدواء لمجتمع كان بحاجة الى الاصلاح فى كل مجال تقريبا(٣٤) .

كذلك لم يكن فتحى فى هذا التشخيص بعيدا عن مدرسة محمد عبده الاصلاحية ، التى كانت ترى أن الوسيلة الفعالة الوحيدة للنضج القومى والاستقلال الحقيقى ، انما هى التربية .. وكان النموذج الذى قدمه فتحى للمصريين هو النموذج الانجليزى ، حين وضح كيف استولت الشعوب الانجلو سكسونية على العالم ، وتسنمت أعلى درجات القوة والازدهار بين جميع شعوب العالم ، وكان من أهم أسباب ذلك أن تربيتهم كانت تهدف الى تدريب الانسان على العيش فى العالم الحديث(٣٥) .

وكان فتحى زغلول مؤمنا ، مع لوبون ، بأن اختيار طريقة التعليم أهم فى مصلحة الأمة من اختيار حكومة مناسبة لها(٣٦) ، ومن هنا التمس « من بنى الانسانية فى عموم شعبنا المصرى ، على تباين مذاهبهم واختلاف مشاربهم ، أن ينشطوا بالاقبال على روض التعليم والتنزه ببهجة المعارف ، مع حث أولادهم على ملازمة المدارس والازدياد من التعليم ، حتى ينتهج الجميع سبل الرشاد ، ولا يجهلوا معانى التمدن والحرية »(٣٧) ٠

كما طالب بالاعتناء بتربية البنين والبنات فى حالة الصغر . زمن البساطة والسذاجة ، فانهم يومئذ طوع اليد ، يذهبون معك الى اى طريق احببت ٠٠ ثم أبعثهم الى مناهل العلم وموارد الحكمة ، يتغذون بالبانها ويتوشحون بردائها ، وينتفع الوطن بمهارتهم وتفننهم فى الصنائع القيمة ، وينشرون فى انحائه رايات التمدن والاصلاح والثروة والفلاح(٣٨) ٠

وقد أبدى فتحى اهتماما خاصا بالتعليم الفني والعلمى ، وافاد بأن تعليم الانجليز لابنائهم الصنائع اليدوية كان من أسباب تقدمهم وتفننهم ٠٠ فالتجارب هى أهم مرب للأمم ، ونادى بضرورة اتباع طريقة تعليم فنى عملى يرد النشء الى المصانع والمعامل والمشروعات العمرانية وغيرها ٠٠ فالتعليم الفنى تطلبه الآن العقول النيرة وقد سبقتنا اليه الأمم التى تحكم الدنيا بقوة ارادتها ، وبما أوتيت من الاقدام الذاتى(٣٩) ٠

من كل ماسبق يتضح كيف أن فتحى زغلول قد أبدى اهتماما واضحا بقضية التربية والتعليم ، كجزء من اهتمام عام بتمدين الفكر والثقافة المصريين وتحديثهما ، وربط بين ذلك كله والنهضة الوطنية . وان ركز بشكل خاص على التعليم الفنى والعملى الذى تفتقر اليه البلاد ، والذى كان من أهم عوامل تقدم وتمدن الأوربيين ٠

اصـــلاح اللغة العـــربية :

ويتصل بمسألة التربية والتعليم قضية اصلاح اللغة العربية ، وجعلها لغة العلم الحديث ، ولفتحى زغلول محاضرة وحيدة ، على جانب كبير من الأهمية ، تحمل عنوان « ماهية اللغة » وبرغم انه لم يكتب ســـواها فى ذلك الموضوع ، الى أنها تلخص أفكاره فى هذا المجال ، بالاضافة الى كونها تدخل فى مجال اهتمامه الأوسع وهو التحديث والتمدين ، ولأن الرجل كان مترجما ومعربا امتلك القدرة والخبرة فى ذلك ، فقد ركز اهتمامه على قضـــية التعريب بشـكل جوهرى ·

وقد فند فتحى دعوى القائلين بأنه يجب علينا أن لا نعرب كلمة أعجمية لنضيفها الى لغتنا العربية ، كما يفعل الأوروبيون الذين استمدوا لغتهم من أصل واحد ، وهو اللاتينية ، فيرد فتحى على ذلك بأن لغات الأوروبيين المعروفة لغات ممتازة عن ذلك الأصل ، فكل لغة مستقلة قائمة بذاتها ، لها قواعدها وتراكيبها وصيغها ، فاذا استعاروا لاختراع جديد اسما من ذلك الأصل ، فانما يستعيرونه من لغة أعجمية بالنظر الى لغتهم ، بل ويستعيرون من اللغة اليونانية القديمة أيضا ، يضاف الى ذلك أنهم اذا وجدوا أســـماء لمسميات ليست عندهم ، ولا يجدون من لغتهم نصـــيرا على التعبير عنها فانهم يقدمون على تناول المسمى واســـمه ، ويدرجون عليه من ساعتهم فيمتزج بلغتهم ويعرفه الكل ، وما كان هذا ليفسد لغة من تلك اللغات ، بل ويصف فتحى المعترضين على هذا بأن لديهم شعورا بالعجز عن المجاراة ، لفتور فى الهمة وقصور فى المعرفة ·

وكذلك طالب فتحى بضرورة اصلاح حروف الهجاء واشكالها وصورها ، ولم يقل كيف ؟ « ·· لنتمكن من تناول كلمات الغير بأشكال وصور تجعلنا ننطق كلماتهم ، كما ينطقون ، وننقل عنهم

كما هم عن بعضهم ينقلون ·· فاذا كنا عربا فلنا حق التصرف بلغتنا كما تقتضيه مصلحتنا ، وان كنا مستعربين ، فبحكم قيامنا مقام أصحاب هذه اللغة ، وبكوننا ورثناها ·· » وأضاف فتحى موضحا آن العرب وهم أصحاب مجد وسلطان وعزة لم يعتزوا بلغتهم فنفروا من العجمة لأنها أعجمية ، بل استخدموها حيث وجب الأخذ بها تمكينا للغتهم ، وحذرا من أن يصيبها الوهن ، اذا قعدوا عن مجاراة تيار التقدم ·· ثم تساءل : أيجوز أن نتخلف عن السير فى طريقهم ؟

وقد ربط فتحى بين قضية تطوير اللغة وبين التقدم فقال : عليكم بالتقدم ؛ فادخلوا أبوابه المفتوحة أمامكم ولا تتأخروا ، فلستم وحدكم فى هذا الوجود ، ولا تقدم لكم الا بلغتكم ، فاعتنوا بها واصلحوها وهيئوها لتكون آلة صالحة فيما تبتغون ، ولكن لا تكثروا من الاشتقاق الخارج عن حد القياس المعقول ، ولا تقفوا بها موقف الجمود والعجمة تهددها على ألسنة العامة ·

ويبدو أن فتحى أراد أن يطمئن الخائفين على لغة الاسلام من الكلمات الأعجمية فذكر : أليست هذه اللغة حافلة بالألفاظ والتراكيب العالية ، المصونة بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، فهى لن تتأثر ببعض كلمات تدخل عليها فى كل عام · بل لقد رأى أن هذا العمل يؤيدها ويشد أزرها ، فلا يطمع الأجانب فيها باعتبارها من اللغات الميتة · ثم تساءل فتحى مستنكرا : كيف تخافون على القرآن وهو محفوظ مصون عند من لم يعرف العربية من المسلمين ·· أيعجزكم أن تحافظوا على القرآن بيمينكم ، وتفسحوا المجال فى لغتكم للتقدم باليسار ؟!

وقد تعجب فتحى من أمر المعارضين للتقدم باسم الدين فقال : ما لنا وللدين نجره فى كل أمر ونقيمه حاجزا فى وجه كل باحث ، حتى فى الأمور التى يأمر هو بتناولها ·· يأمرنا الدين بتعلم ما خلق

الله ، وأن نسير على سنة التقدم التى سنها للبشر ، ونحن كل يوم فى احجام بدعوى يعلم الله مقدار بعدها عن الحق والصواب(٤٠) ٠

من ذلك كله يتضح لنا أن فتحى كان داعية لاصـــلاح حال اللغة العربية بما يتفق وسنة التطور والتمدن ، وان لم يقدم تصورا علميا لامكانية تنفيذ ذلك ، ولم يكن يرى تناقضـــا بين ذلك وبين المحافظة عليها باعتبارها لغة القرآن الكريم ، كما كان فهمه للدين واعيا بدعوته للعلم واستخدام العقل لفهم لغة الحضارة الجديدة وأدواتها ٠

موقفه من الدين :

ولعل فهمه للدين على هذا النحو يقودنا للتساؤل عن موقفه من الدين الاسلامى ، ويبدو أن هذا الموضوع قد شغل فتحى فى فترة مبكرة من حياته ، بل راح يفتش فى لغات الأوروبيين عما كتب عن الاسلام ، فعثر على كتاب ألفه الكونت هنرى دى كاسترى ، كان قد أصدره عام ١٨٩٦ ، فقرر فتحى ترجمته فور قراءته ، ولكنه قبل أن يشرع فى نشره استشار نفرا من أصدقائه ، الذين نصحوه بعدم نشره « لأن الكتاب اضطر الى ذكر ما كان يعتقده مسيحيو العصور الخالية فى الدين الاسلامى من الشناعات والســـباب ، وذكر هذه الأشياء وان كان على سبيل الرد عليها ، ربما اشمأزت منه النفوس فلا يروق جماعة المسلمين ٠٠ » ٠

بيد أن فتحى اعتقد بعكس ذلك ، فذكر أن المؤلف رغب الى قومه أن يستبدلوا تلك الصورة المشوهة ، بصورة الاسلام الحقيقى ، وان المؤلف (دى كاسترى) لو لم يذكر ما ذكره من تلك الأوهام ، ونبه على فسادها ، لبقى المعنى الأول فى أذهان قومه »« أما وقد

فعل فلا شبهة فى أنه خدم ما استطاع ، ووجب علينا شكره ما استطعنا ومن تمام شكره اعلام قومنا بكتابه ٠٠ »(٤١) ٠

وعلى ذلك قرر فتحى نشر الترجمة سنة ١٨٩٧ وقدم لها تقديما برر به اقدامه على هذا العمل وان أعفى نفسه من الرد على المؤلف ٠ ويبدو أن الكتاب بما حواه من مغالطات وسوء نية ، بل وسوء فهم الأوروبيين لحقيقة الاسلام قد أثار موجة غضب ضد فتحى ، بلغت ذروتها باحراق الكتاب ، وقد عبر فتحى عن ألمه الشديد لما حدث ، فذكر أن من الناس من أسرع الى طرح الكتاب ، واشتغل عن العمل بالتعنيف والعتاب واحراق الكتاب ظنا بأن احراقه ينجيه من وصمة الخمول الذى انغمس فيه(٤٢) ٠

لقد كان فتحى على علم تام بما سيثيره الكتاب فذكر مبرئا نفسه من أى شبهة قد تلحق به « وان قومى لعلى علم تام ٠٠ بأن مقصد مثلى حسن وغرضى انما هو التنبيه على أنه قد وجد من غيرنا من قام للدفاع عنا » ثم استرشد فتحى بالقرآن الكريم فى أنه حكى بعض المذاهب بنصها ورد عليها بغاية الايضاح(٤٣) ٠ كذلك فقد اعترف بأنه قد جاء فى الكتاب بعض الآراء مما عساه أن يحمل على الخطأ ، مثل الذى له فى التأويل ، والحكاية عن اخلاق رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وأعماله ومعتقداته ، فيلتمس فتحى للمؤلف عذره بأنه ألف كتابه لينشر بين قومه وأن المترجم لم « يشأ أن يكون معه من المجادلين لئلا تضيع الحقيقة ٠٠ »(٤٤) ٠ وكانت الأمانة تقتضى منه أن يكون مع المؤلف من المجادلين ، أو أن يسبق ترجمته أو يلحقها بدراسة للكتاب يرد بها على ما جاء به ، لكنه نكص عن ذلك ٠

والغريب حقا أن فتحى لم يكن أبدا ذاهلا عن هدف المؤلف من نشر كتابه بين قومه ، فقد ترجم عنه ذلك الهدف بعبارة صـــريحة

لا لبس فيها ، حـــين ذكر دى كاسترى « ·· والذى نســـتخلصه مما تقدم أنه يجب على الدول الأوربـاوية التى تميل الى التوسع والاستعمار أن تتعرف ديانة رعاياها أو اصدقائها المسلمين»(٤٥) ·

ومع ذلك لا يمكننا أن نتشكك فى صدق ايمان فتحى زغلول ، الذى لخص فى مقدمته مفهومه عن الاســـلام ، حين ذكر أنه يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ولا يرضـــى منا بالغفلة عن المنافع أو المصالح ، ويطالبنا بدفع المفسدة ، ويحثنا على مكارم الاخلاق ، ويبين لنا أن كل بدعة ضلالة ، وأن كل ضلالة فى النار ، وأن طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة ، وأن العلم يطلب ولو فى الصين، وأن لا شيء من العلم بضار ، ولا شيء من الجهل بمفيد ، وأن من أحـــدث فى الدين ما ليس منه ، فهو رد عليه ·· لكن اندثر العلم وانحلت العزائم ، وقعدنا عن تحصيل القليل من ضرورياتنا ، وانحل نظام المسلمين فأصبحوا أشتاتا ، يمقتهم الناس ، ويرمونهم بالانحطاط ·· كيف نطلب منهم (الأجانب) حسن الاعتقاد فى الاسلام وهم يرون المســـلمين يأتون من الاعمال مالا ينطبق على عقل ، ولم يقل به شرع ؟!(٤٦) ·

وليس من شك فى أن فتحى زغلول قد فهم من الدين ما يتفق وروح العلم والعقل ، التى حث عليها الاسلام ، كما أبدى غيرة شديدة على حال المسلمين وما آل اليه من ضعف وتدهور · وكان يتعجب من فهم الناس الخاطيء لمسألة التوكل على الله ، وكان يرى أن ذلك لا يتنافى مع تلمس أسباب التقدم « فليس سعى المرء لالتماس العيش والتشبث بأسباب الغنى ، ودفع ملمات الفاقة مما ينافى توكله متى كان يعد الأسباب ويهيىء الوسائل ، معتقدا بأن التأثير كله لله جل وعلا ، ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ردا على من قال اطلقتها متوكلا على الله ، اعقل وتوكل (أى هيىء ما تقدر عليه من أسباب الحفظ وبعد ذلك سلم الأمر لله) ومن هنا حرم العلماء

على الانسان أن ينقطع عن الأعمال معتقدا أن الله يرزقه بدون أن يعد سببا ويتشبث بوسيلة ·· »(٤٧) · ويتصل بذلك أن فتحى كان ينعى على الناس ضعفهم وعجزهم ، اذا استلب منهم حق ، وقد نكر أن الرجل منا يسلب حقه ويهان ملكه ، وهو يقول : لا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم وحسبنا الله ونعم الوكيل(٤٨) ·

يضاف الى ما سبق أن فتحى كان بحكم دراسته القانونية دارسا للشريعة الاسلامية ، بل كان مؤمنا بأحكامها ايمانا صادقا ، وقد تردد هذا المعنى فى مقالاته فى أكثر من مناسبة ، منها حين كان يصف عادات الافراح السيئة ، فيصف من يمارسونها بأنهم ذهلوا عما ورد فى الشرع ، وأجمعت عليه الأئمة · وفى تعريفه للتمدن والتقدم تحدث عن الحرية باعتبارها مجموع الفضائل الخلقية من حكمة وشجاعة وعفة وعدالة ، وان شئت فقل هى اصدار ما يحسن من الآثار وما يجمل من الأعمال ، ولا يكون هذا الا بأن يتباعد الانسان عما نهت عنه الشريعة ، ويقوم بأداء ما توجبه عليه الفروض(٤٩) ·

وكان فتحى على اعتقاد بدور الدين فى تطور الأمم ، حتى فى تطورها السياسى ، بسبب قوته العظيمة ، وباعتباره عاملا أساسيا تتوحد به الأمة ، فى منافعها ومشاعرها وأفكارها فى وقت معين ·· ومن هنا تتجه جميع قواها نحو الانتصار للدين الجديد ، وفى ذلك سر قوتها العظمى ، كما أن قيام الأمم بأعظم أعمالها كان فى عصر تدينها ، فتأسست أكبر الممالك التى أدهشت العالم فى عصور الايمان(٥٠) ·

وهكذا كان فتحى زغلول مؤمنا بدور الدين ، واعيا بضرورة فهمه فهما عصريا لا يرى تناقضا بين ايمانه به ، وباعمال العقل فى شئون الدنيا ، وبالافادة من منجزات الحضارة · ولم نجد له اشارة

فيما كتب حول الدين الا وحفه بالتبجيل والاحترام ، وربما شــاب معرفته به قصوره عن التفقه فيه؛ بما يؤهله للرد على كتاب دى كاسترى الذى ترجمه ٠

رجل القوانين والتشــريعات :

ويتصل بنشاط فتحى الفكرى والثقافى مجال هام خاض فيه خوض المثقف المتمرس ، وهو مجال التأليف القانونى ، فقد كان فتحى زغلول رجل قانون من طراز فريد فى عصره ، وهب نفســه لمهنته فبلغ فيها شأوا عظيما ، بل وأحرز أعلى مراتبها ، على نحو ما رأينا ، وأسهم فى تطويرها مؤلفا وباحثا ، وقد بدأ نشاطه فى هذا المجال بترجمة كتاب بنتام « أصول الشرائع » الذى نشر ترجمته فى جزءين بمجلدين عام ١٨٩٢ ، ثم ألف كتاب المحاماة ، نشره عام ١٩٠٠ ، كما وضع شرحا للقانون المدنى ، وهو شرح موجز لأحكام ذلك القانون فى شتى فروعه ومواده ، وقد نشر طبعته الأولى عام ١٩١٣ ، ثم نشر رسالته « التزوير فى الأوراق » عن التوصـــيف والتكييف القانونى للمسألة ، وليس من شأن هذه الدراسة أن تتناول هذا الجانب القانونى الفنى بالتحليل ، ولكننا فى مجـــال التأريخ لاسهام فتحى زغلول الفكرى نرى أن نضرب مثالا لجهوده فى هذا الشأن ٠

فبرغم أن فتحى لم يمارس مهنة المحاماة عمليا ، كمعظم أقرانه ، الا انه كلف بها ، وألف فيها كتابا ضخما على درجة من الأهمية ، رجع اليه المختصون فى حينه ، ويفيد منه المؤرخون فى كل حين ٠ وحتى تكتسب كتابته قيمتها العلمية والتاريخية ، راح فتحى يفتش عن مصادر وثائق فى الدفترخانة المصرية ودفاتر قيد الأوامر لينتقى مادة كتابه ، بل أكثر من هذا ذيل كتابه بملحق وثائقى يضم اللوائح

والقوانين ومجالس الاحكام وقوانين الانتخابات التى صدرت فى مصر حتى عام ١٩٠٠ بنصوصها الأصلية ٠

ولأن « النموذج الأوروبى » كان دائما حاضرا فى ذهن فتحى زغلول ، للدراسة والمقارنة والتأمل ، فقد درس فى الفصلين الأول والثانى نظام « المحاماة عند الأمم الغربية والولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى »(٥١) ثم درس القوانين ونظم القضاء فى عهد محمد على، ثم عهد خلفائه ، الى أن قدم دراسة للقضاء من عهد اسماعيل وحتى افتتاح المحاكم الأهلية ٠٠ ومن الملاحظ أن فتحى درس القوانين التى صدرت فى عهد محمد على دراسة واعية ناقدة موضحا وجهة نظره التى كانت تميل الى تقدير وابراز أهمية ما قدمه محمد على لمصر فى هذا المجال ٠ وان كان قد علق على ذلك بقوله بأن « القوانين والنظم الجيدة وحدها لا تكفى ، وانما لابد أن ينفذها رجال بلغوا من حسن النية وكمال الاخلاص درجة سيدهم (يقصد محمد على) عندئذ لأصبحت مصر فى زمن يسير تضارع الأمم الكبرى ٠٠ »(٥٢) ٠

وفى عرض تاريخى شيق تحدث عن نشأة المحاماة ، وتطورها حسب تطور الحضارة والتمسك بالقانون ، بدءا بطائفة « العرضحالجية » فوكلاء الدعاوى والمزورين ٠٠ الخ وحتى بلغت المحاماة أقصى تطور لها فى أواخر القرن التاسع عشر ، عندما أنشئت المحاكم المختلطة فى مصر عام ١٨٧٥ ، حيث عمدت الى وضع نظام للمحامين فى شكل لائحة لترتيب الحرفة ، وقد اعتمدت فى عام ١٨٨٧ لتصدر فى النهاية بمثابة دستور يوضح حقوق المهنة وواجباتها وعلاقتها بالسلطة القضائية(٥٣) ٠

لقد كان فتحى زغلول يرى أن القانون ، على اختلاف معانيه ما هو الا واسطة بين الحاكم والمحكوم ، وأنه لابد للقيام على تنفيذه من الصدق والاخلاص ، فاذا حدث انحراف فى تنفيذه ، أو امتدت يد

العبث بأحكامه ، ساءت الواسطة ، واحتيج الى تقويمها ، وليس من يقدر على ذلك الا المحاماة ، لما اختصت به من اطلاق الفكر وحق المراقبة الطبيعى على المشتغلين بتنفيذ ذلك القانون(٥٤) .

كما مس فتحى تاريخ المحاكم الشرعية مساخفيفا حين تحدث عن تاريخها وما كانت تثيره فى الماضى من شكاوى « حين كان الأمير بنفسه يقضى ، ورؤساء الدواوين تقضى ، والسناجق والاغوات تقضى ، وكل موظف ، حتى المحتسب يقضى .. » وقد علق على ذلك بقوله : ان حالة البلاد وبواعث توطيد الأمن كانت تستلزم غير تلك المحاكم فى تقرير الحقوق وفرض الواجبات والفصل فى المنازعات(٥٥) .

والطريف أن أمير الشعراء أحمد شوقى الذى انتقده بقصيدته أمام المحتفلين به ، عندما رقى بعد دنشواى ، عاد فكتب فيه مرثية بليغه(٥٦) ، عقب وفاته ، قرظه فيها واعترف باسهاماته القانونية فقال :

مالت بقسطاس الحقوق نوازل	ومشت على ركن القضاء عواد
يا أحمد القانون بعدك غامض	قلق البنود مجلل بسواد
والأمر أعوج والشئون سقيمة	مختلة الاصدار والايراد
والقول مختلط الفصيح بضده	تبكى جواهره على النقاد

***

خـــــــاتمة

لعلنا فى هذه السياحة الفكرية قد لاحظنا أن الانتماء الاجتماعى لأحمد فتحى زغلول ، باعتباره أحد ابناء طبقة الاعيان المصرية ، ثم تكوينه العلمى والثقافى الأوروبى ، الذى اعتمـــد على الثقافة الفرنسية بشكل خاص، قد أثر تأثيرا شديدا فى تكوين وتشـــكيل قناعاته الفكرية ، ومن ثم اسهاماته فيما بعد ٠

فالرجل بدأ ثوريا متحمسا للثورة المصرية (٨١ ـ ١٨٨٢) متأثرا بموجة المد الوطنى الصاعد ، وعندما انتكست الثورة رحل الى أوروبا طالبا للعلم ، وهناك جمع الى دراسته النظامية للقانون الاطلاع على تراث الفكر السياسى والاجتماعى الأوروبى ، فعاش تجربة أوربية كاملة ، رأى المجتمع عن قرب ومن الداخل ، ودرس أصوله الفكرية عند أفلاطون وروسو وسبنسر وبنتام ، ثم ديمولان ولوبون وأضرابهم ، وتغلغل كل ذلك فى مكونات ثقافته ٠٠ ثم عاد فتحى الى وطنه اصلاحيا هادئا ، مدركا سبب انتكاس الثورة ، واعيا بسر تقدم الانجليز ، بل أكثر من هذا داعيا للتعاون معهم ، مما خالط شعوره الوطنى بالضعف والفتور ٠

لقد رأى فتحى أن خير ما يقدمه لمصر أن يترجم لها ما استفاد منه وما اعتقد أنه سر تقدم وتفوق الغرب ، وكأصلاحى آمن بدور العلم ، أقدم على ترجمة الأصـــول التى أفاد منها الأوربيون فى نهضتهم محاولا تطبيق ما رآه من أفكار وآراء على مصر والمصريين٠ وكانت لديه قناعة بأنه انما يقدم لبلده « أنموذجا » فيما يترجم من نماذج الأمم المتقدمة والمتطورة ، ومن هنا كانت اختياراته لما كان

يترجم من كتب ومؤلفات بحثا عن « أسرار » هذا التقدم « وروح » التجديد والعصرية التى أبلغتها هذه المكانة ·

وينبغى أن نوضح أن فتحى لم يكن مجرد معجب بالنماذج التى قدمها ، أو أنه قدمها لذاتها ، وانما كان ناقدا واعيا ، يدرك أهمية التربية والتعليم ، وأهمية التقدم الفنى والعلمى · ولم يكن يعنيه كثيرا ما يتفق وطبيعة المجتمعات الأوربية ذاتها ، وانما ما يتواءم مع طبيعة مصر والمصريين ، وبذلك لم يدع للتغريب على اطلاقه ، وانما كان داعية لأن تستفيد مصر من العناصر الجيدة فى حضارة الغرب · كما كان فتحى زغلول فى كل ما كتب من مقالات تتناول المجتمع المصرى ، يبدى تقديرا واحتراما واضحا لطبيعته الخاصة والمتميزة ، وطالما كتب مقالات يطالب فيها المصريين بالتخلص من العادات والتقاليد السيئة وأن يأخذوا بأسباب العلم وأسباب الرقى والحضارة ، وأن يفهموا الدين فهما مستنيرا عقلانيا يتفق ودعوته للتمدن والرقى ·

لقد كان فتحى زغلول مؤمنا بالتحررية بأوسع معانيها فنادى بالحرية فى كافة صـــورها ، وآمن بدور الفرد وحريته فى صـــنع الحضارة الانسانية ، ومن ثم هاجم كافة أنواع القيود ، والحكومات التى تحد من حريته ، فكان من دعاة اللبرالية السياسية والاجتماعية، وقد قاده هذا الموقف الفكرى لأن يكون من نقاد الاشتراكية ، كما قاده الى تكريس دور الصفوة المتفوقة فى المجتمع ، وضرورة تصدرها لحركته السياسية والاجتماعية ، كما أبدى آراء غاية فى الأهمية ، فى مقالاته ، فى التربية والتعليم وتطوير اللغة ·· الخ ·

لقد كانت قضيته الأولى هى وطنه ، يشخص أدواءه ، ويحلل أسباب تأخره ، يحمل فى قلبه همومه ، ويقدم له ما ينمى فيه روح التقدم والتطور ، ويطالب مواطنيه بالافادة من التجربة الانسانية

المتفوقة ، وكان مدركا أن مصر لن تدخل عصر العلم الا بترجمة آثاره والوعى بها والاستفادة منها ٠

والى جانب ذلك الاسهام أعطى فتحى مهنته (القضاء) اهتماما كبيرا فبلغ فيها مرتبة عالية وقدم مؤلفات وشروحا وتشريعات على درجة كبيرة من الوعى والاستنارة ٠

تم بحمد الله

الهــوامش

الفصل الأول :

(١) ملف خدمة أحمد فتحى زغلول المودع بدار المحفوظات العمومية المصرية بالقلعة وهو تحت رقم ٢٥٦٨٧ ، محفظة ١١٠٥ ، مخزن رقم ٥٤ ، ورقة (٧٢) وتعرف الوثيقة بلدته ابيانه بأنها « مركز بلاد الأرز غربا » وهى تابعة الآن لمحافظة كفر الشيخ طبقا للتقسيم الادارى الحالى .

(٢) أحمد لطفى السيد : تأملات فى الفلسفة ، ص ١٢٣ وكذلك : الجريدة فى ٩ مايو ١٩١٤ .

(٣) أوراق محمد فريد : (غير المنشورة) المجلد الأول « مذكراتى بعد الهجرة » ص ١١٢ — ١١٣ . وان كان لطفى قد ذكر أن التسمية جاءت عندما انتقل فتحى من المدرسة التجهيزية الى مدرسة الألسن التى زارها ناظر المعارف وأعجب بذكاء الشاب فتح الله صبرى وأعطاه اسم « أحمد » ونحت من فتح الله « فتحى » وأصدر أمرا رسميا الى المدرسة بتسميته « أحمد فتحى » وبأن يرد اليه ما دفع من المصروفات واعتباره طالبا مجانيا (الجريدة فى ٩ مايو ١٩١٤) . وأنظر كذلك ، زاخورا : مرآة العصر ، مجلد (٢) ص ٣٥١ . وكذلك محمد رشيد رضا : تاريخ الأستاذ الامام ، ج (١) ، ص ٢٣٦ ، وفيه ذكر كيف كان فتحى يحضر خطب النديم وهو فى مدرسة رأس التين بالاسكندريه .

(٤) ملف خدمته ، ورقة (١٤) وقد جاء فيها أنه « أحد تلامذة الرسالة المصرية بأوربا ، وقد عاد الآن متحصلا على دبلوم الحقوق ، ان هذا الأفندى

هو ضمن التلامذة الذين ربتهم الحكومة المصرية على نفقتها ، ومع ما هو متحصل عليه من علوم الحقوق ، تحصــل أيضا على اللغتين العربية والفرنساوية » .

(٥) ملف خدمته ، ورقة (٧٢) ، وكذلك أحمد فتحى زغلول : الآثار الفتحية ، من ترجمـة صالح بك جودت له ، ص ٨ ـ ٩ . وان كان لطفى السـيد قد ذكر أن فتحى كان رئيسا لمحكمة الزقازيق وليس المنصورة (تأملات فى الفلسفة ص ١٢٤) . وكذلك : الجريدة فى ١٠ مايو ١٩١٤ (من كلمة عبد الخالق ثروت فى تأبينه) ويؤيد هـذا محمد فريد فى مذكراته « تاريخ مصر ابتداء من ١٨٩١ مسيحية » ك ٣ ، ص ٢٦ وقد ذكر أنه عين فى ٢٢ نوفمبر ١٨٩٣ .

(٦) أوراق محمد فريد : المجلد الأول ، مذكراتى بعد الهجرة ، ص ١١٣ .

(٧) الجريدة فى ١٠ مايو ١٩١٤ من كلمة عبد الخـالق ثروت فى حفل تابينه ، كما ذكر صالح بك جودت « بأنه قـد طال عهده وهو صابر يرى من من كان خلفه من الأقران يسبقه الى الوظائف الكبرى ولا يبدى شكوى ، حتى علم فضله بذاع نبله ، فولته الحكومة مركز وكيل نظـارة الحقانية عام ١٩٠٧ (الآثار الفتحية ص ٨ ـ ٩) .

(٨) ملف خدمته ، ورقة (٧٢) .

(٩) فقد كان مرتبه الشهرى عام ١٨٩٣ أربعين جنيها ، وعندما أصبح وكيلا للوزارة عـام ١٩٠٧ أصبح راتبه ١٢٥ جنيها شهريا (أنظر ملف خدمته رقم ٢٥٦٨٧ ورقة (٧٢) وفيها تدرج مرتباته وعلاواته) .

(١٠) ورث فتحى ٢٠ فدانا بالاضافـة الى حصـة المبانى والمنـازل والأراضى الفضاء بناحية ابيانة مركز فوة ثم اشترى مائة فدان بالصـالحية بمديرية الشرقية ، ثم أضاف الى ذلك ١٩٣ فدانا بناحية محلة أبو على الغربيـة التابعة لمركز دسوق فى مارس ١٩٠٢ (ملف خدمته ، أوراق ٦٦ ، ٦٧ وهى اقرارات ممتلكاته) وقد روى محمد فريد فى مذكراته « سمعت من زبور باشـا محافظ الاسكندرية أن أحمد باشا عفيفى وكيل زوجة الشـواربى الغنى الكبير الذى مات قريبا ، وجد ضمن أوراق المتوفى سـندين على أحمد باشـا فتحى زغلول ، أحدهما بألف ومائتى جنيه والثانى بأربعماية مقسطين على أقساط شهرية ، كل منها بخمسة وعشرين فقط بلا فائدة ، وأن فتحى اراد اتلافهما وعدم درجهما للمطلوب للشـواربى ، اى أراد سرقة السندات لضياع المبلغ ،

فلم يوافقه ، فقد كان فتحى باشا مقابل هـذا الخدمة يساعد الشـواربى كثيرا فى أعمـاله ، فهكذا الموظفون الأمنـاء ! .. » أنظر : أوراق محمد فريد ، مذكراتى بعد الهجرة ك (٢) ص ١١٢ ـ ١١٣ .

(١١) من تقرير الجمعية الخيرية الاسلامية ، منشور بالآثار الفتحية ص ٢ . ثم انظر :

Ahmed J.M· The Intellectual Origins of Egyptian Nationalism, P. 39.

(١٢) ملف خدمة فتحى زغلول ، ورقة (١٩) .

(١٣) أحمد فتحى زغلول : الآثار الفتحية ، ص ٩ (من ترجمـة صالح بك جودت له). وقد أضاف لطفى السيد أن فتحى خطب فى حفل دار الجامعـة المصرية لتتويج كتبه ومؤلفاته ، موصيا المحتفلين به « علموا الأمة . علموا الأمة . علموا الأمة » . (أنظر تأملات فى الفلسـفة ص ١١٤) .

(١٤) أحمد لطفى السـيد : تأملات فى الفلسـفة .. ، ص ١١٤ .

(١٥) الجريدة فى ١٠ مايو ١٩١٤ (كلمة ثروت باشا) ، محمد رشيد رضا : تاريخ الأستاذ الامام ، جـ ١ ، ص ٥٩١ .

(١٦) انظر ترجمة صالح جودت له فى « الآثار الفتحية ص ٨ » .

(١٧) أحمد لطفى السـيد : تأملات فى الفلسـفة ، ص ١٣٣ .

الفصل الثانى

(١) حول جماعة محمد عبده ، نشأتها ودورها أنظر كتابنا « حزب الأمة ودوره فى السياســة المصرية » ص ٣٤ ـ ٣٥ .

(٢) رشيد رضا : تاريخ الأستاذ الامام ، جـ ١ ، ص ١٠٦٤ ، وحول صـداقة محمد عبده لفتحى كذلك صفحات ٩٩٦ ، ص ١٠٠٦ وقد أضاف أن الأستاذ الامام كان قد عهد الى فتحى بترجمـة كتاب الأسـتاذ جوسـتاف لوبون حضارة العرب ، فعزم على ذلك ، ثم توفى الأستاذ ولم يفعل ، وقد ترجمـه بعد ذلك محمد أفندى مسـعود . (ص ٩٤٨) وأنظر أيضـا آدمس : الاسـلام والتجديد فى مصر ، ص ٢٠٤ .

(٣) أحمد زكريا الشلق : حزب الأمة ، ص ٣٥ .

(٤) مذكرات سعد زغلول ، ك (٦) ، ص ٢٨٥ - ص ٢٨٧ .

(٥) أحمد زكريا الشلق : المرجع السابق ص ٤٠ ، وكذلك محمد محمد حسين : الاتجاهات الوطنية جـ ١ ص ٢٣٣ .

(٦) مذكرات سعد زغلول ، ك ٧ ، ص ٣٠٢ .

(٧) الجريدة ١٧ أكتوبر ١٩٠٧ (اسماء الموظفين) ، ٢٦ يناير ١٩٠٨ (اسماء علماء القانون الذين سنوا قانون الشركة ، ومنهم أحمد عفيفى وعبد العزيز فهمى ومحمود أبو النصر ومحمد محمود خليل) .

(٨) مذكرات سعد زغلول ، ك ٧ ، ص ٣٠٩ .

(٩) عبد الخالق لاشين : سعد زغلول ودوره فى السياسة المصرية حتى عام ١٩١٤ ، ص ٨٧ .

(١٠) مذكرات سعد زغلول ، ك ٧ ص ٣١٠ .

(١١) عبد الخالق لاشين : المرجع السابق ص ٢٤٨ - ٢٤٩ .

(١٢) مذكرات سعد زغلول ، ك ٣٠ ، ص ١٦٤٨ .

(١٣) نفس المصدر ، ك ٧ ، ص ٢٩٨ .

(١٤) أحمد شفيق : مذكراتى فى نصف قرن ، الجزء الثانى ، القسم الثانى ص ١٤٣ وجورست هو المعتمد البريطانى الجديد الذى خلف اللورد كرومر .

(١٥) أنظر مذكرات سعد زغلول ، ك ٦ ، ص ٢٨٦ - ٢٨٧ .

(١٦) محمد جمال الدين المسدى : دنشواى ص ٨٦ .

(١٧) أحمد عبد الرحيم مصطفى : تاريخ مصر السياسى ص ٤٣ .

(١٨) Cromer, Abbas II, pp. IX.

(١٩) Al-Sayyid, Afaf L., Egypt and Cromer, P. 137

(حول دفاع لطفى السيد) ثم صلاح عيسى : حكايات من مصر ، ص ٢١٣ - ٢١٤ (حول ادعاء الهلباوى) .

(٢٠) محمد جمال الدين المسدى ، المرجع السابق ، ص ٨٨ .

(٢١) نفس المرجع ، ص ٨٩ .

(٢٢) ماهر حسن فهمى : أحمد شوقى ، ص ٥٢ (سنة ١٩٨٥) .

(٢٣) أنظر المقطم عدد ٢٥ يونيو ١٩٠٧ . ويذكر محمد محمد حسين فى كتابه الاتجاهات الوطنية جـ ٢ ، ص ٤٠٧ أن فتحى زغلول هو المقصود بقول شوقى فى قصيدته فى وداع كرومر :

أم من صيانتك القضاء بمصر تأتى بقاضى دنشواى وكيلا

(٢٤) الآثار الفتحية ، ترجمة لفتحى زغلول بقلم القاضى صالح بك جودت بمحكمة مصر الأهلية ، ص ٥ – ٦ .

(٢٥) حول نشأة حزب الامة وبرنامجه أنظر كتابنا : حزب الأمة ودوره فى السياسة المصرية ص ٦٠ – ٨٢ .

(٢٦) مذكرات سعد زغلول ، ك (٧) ص ٣١٠ .

(٢٧) مذكرات سعد زغلول ، ك (٧) ، ص ٣١٢ ، ٣١٦ .

(٢٨) نفس المصدر ، ك (٦) ، ص ٢٨٥ – ٢٨٦ .

(٢٩) عبد الخالق لاشين : سعد زغلول ودوره فى السياسة المصرية حتى عام ١٩١٤ ، ص ٢٤٨ – ٢٤٦ .

الفصل الثالث

(١) أحمد لطفى السيد : تأملات فى الفلسفة والأدب والسياسة والاجتماع ص ١٢٦ – ١٢٧ وكذلك زاخورا : مرآة العصر ، مجلد (٢) ص ٣٥١ ط (١٩١٦) .

(٢) محمد عمر : حاضر المصريين أو سر تأخرهم . والمؤلف من مستخدمى مصلحة البوستة المصرية ، طبع بمطبعة المقتطف بمصر عام ١٩٠٢ . واهدى مؤلفه الى مصطفى فهمى باشا ، رئيس الوزارة المصرية الجليلة .. الخ . وصاحب نسبة الكتاب الى فتحى زغلول هو المرحوم الأستاذ محمد فهمى عبد اللطيف الكاتب بصحيفة الأخبار ، يوميات الأخبار فى ٨ سبتمبر ١٩٨٢ .

(٣) محمد عمر : حاضر المصريين أو سر تأخرهم ، ص ١٦٢ وما بعدها .
وبالكتاب فصول هامة عن المطابع والطباعة فى مصر والكتب والمؤلفين ، والسياسة ، والجرائد السياسية المصرية ، والمجلات العلمية والجرائد الاسلامية ، والوطن والوطنية ، والازهر والأزهريون والعلماء والمحاكم الشرعية ، والمدارس والتعليم .. أنظر ص ٨٢ - ١٢٧ ، ص ١٥٣ - ١٨٩ .

(٤) أحمد فتحى زغلول : مقدمته لكتاب ديمولان « سر تقدم .. » ص ٤٤ .

(٥) المصدر السابق ص ٢٨ ، ص ٣٤ - ٣٥ .

(٦) المصدر السابق ص ٢٩ - ٣٠ ، ص ٤٥ - ٤٧ .

(٧) أحمد لطفى السيد : تأملات فى الفلسفة ص ١٢٦ .

(٨) أنظر : أحمد عبد الرحيم مصطفى : تطور الفكر السياسى فى مصر الحديثة ص ٥٠ - ٥٢ (وان كنا نؤكد أن فتحى لم ينشر شيئا من ترجماته لسبنسر وروسو كما ذكر المؤلف) . وكذلك عبد العاطى محمد : الفكر السياسى للامام محمد عبده ص ٢٨١ ، وكذلك
Ahmed, J.M. The Intellectual Origins P. 45.

(٩) أحمد لطفى السيد : المرجع السابق ص ١٣٠ .

(١٠) أحمد فتحى زغلول : مقدمته لكتاب ديمولان ص ٣٦ .

(١١) أنظر حول أفكار العقد الاجتماعى جان توشار وآخرون : تاريخ الفكر السياسى ص ٣٣٥ - ٣٣٦ .

(١٢) المرجع السابق ، ص ٣٢٨ - ٣٢٩ .

(١٣) أحمد فتحى زغلول : مقدمته لكتاب ديمولان ص ٢٥ والنص نقله فتحى من تقريظ جول لومتر لكتاب صديقه ديمولان هذا ، وقد دعا الى الغاء ثلاثة ارباع الموظفين .

(١٤) أحمد فتحى زغلول : مقدمته لكتاب ديمولان ص ٣٩ - ٤٠ .

(١٥) أدمون ديمولان : سر تقدم الانكليز ص ٣٩ ، ص ٣٩١ .

(١٦) جان توشار : المرجع السابق ص ٥٢٦ - ٥٢٧ .

(١٧) جوستاف لوبون : جوامع الكلم ص ٨٨ .

(١٨) انظر مقالتا فتحى زغلول عن المكافأة ص ٥٧ ، التنافس ص ١٣٣ بالآثار الفتحية .

(١٩) أحمد لطفى السيد : تأملات فى الفلسفة ص ١٢٩ ثم يضيف لطفى ص ١٣٠ ان ادخال المبادىء الاشتراكية فى آخر تطورها الحاضر على أمة ناهضة من عقال الاستبداد نتيجته اضطراب خطر قد يكون ضرره أكثر من نفعه .

(٢٠) أحمد فتحى زغلول : مقدمته لكتاب ديمولان ص ٥ ثم أنظر الفصل الثانى ص ٣١٤ – ٣٦٠ عن المذهب الاشتراكى ونشأته فى ألمانيا وابتعاد الانجليز منه وكيف ان ذلك من أسرار تفوقهم وتقدمهم .

(٢١) جوستاف لوبون : سر تطور الأمم ، ص ٤ ، ص ١٤٧ ، ص ١٨٣ – ١٨٦ .

(٢٢) جوستاف لوبون : جوامع الكلم ، ص ٨٦ – ٨٨ .

(٢٣) لوبون : جوامع الكلم ص ٤٠ ، ص ٦٦ – ٦٧ ، ص ٩٦ وقد ذكر ص ٣١ أن الجماعة تعيش فى جو قوامه التأثر والتدين ، فلا قدرة لها على استكناه ما يراه الفرد صحيحا واضحا جليا لذلك يغلب عليها الخطأ . انظر كذلك كتابه « سر تطور الامم » ص ١٤٣ ، ص ١٦٣ .

(٢٤) أحمد فتحى زغلول : مقدمته لكتاب ديمولان ص ٣٨ .

(٢٥) أحمد فتحى زغلول : الآثار الفتحية ، مقال عوائد الأفراح ص ٨٧ .

(٢٦) لوبون : جوامع الكلم ، ص ٦٥ ، ص ٨٣ ، ص ٨٥ .

(٢٧) لوبون : روح الاجتماع ص ٢٩ .

(٢٨) أحمد فتحى زغلول : مقدمته لكتاب ديمولان ص ٢٥ .

(٢٩) أحمد فتحى زغلول : الآثار الفتحية ص ١٣٤ .

(٣٠) لوبون : جوامع الكلم ص ٤٢ .

(٣١) أحمد فتحى زغلول (مترجما) : من أمير الى سلطان ص ١٨ – ١٩ .

(٣٢) أحمد فتحى زغلول : الآثار الفتحية ص ١٢٣ ـ ١٢٥ .

(٣٣) أحمد فتحى زغلول : مقدمته لكتاب ديمولان ص٣٧ ، ص٤٣ ـ ٤٥ .

(٣٤) أحمد عبد الرحيم مصطفى : تطور الفكر السياسى فى مصر الحديثة ص ٥٠ ـ ٥٢ .

(٣٥) ألبرت حورانى : الفكر العربى فى عصر النهضة ص ٢٢٢ ـ ٢٢٣ .

(٣٦) جوستاف لوبون : جوامع الكلم ، ص ٦٥ .

(٣٧) أحمد فتحى زغلول : الآثار الفتحية ص ١٤١ (مقال التمدن والحرية) .

(٣٨) المصدر السابق : ص ٧٢ ـ ٧٣ (مقال البساطة والعلم) .

(٣٩) أنظر ديمولان : سر تقدم ص ١٣٧ ، ص ١٦١ ، ثم لوبون : روح الاجتماع ص ٦٧ .

(٤٠) الاقتباسات كلها من محاضرته تحت عنوان « ماهية اللغة » نصها فى كتاب « الآثار الفتحية » ص ١٠٤ ـ ١١٠ .

(٤١) هنرى دى كاسترى : الاسلام ، خواطر وسوانح ص ٣ ـ ٤ (من مقدمة فتحى زغلول) .

(٤٢) أحمد فتحى زغلول : مقدمته لكتاب ديمولان ص ٣٢ .

(٤٣) هنرى دى كاسترى : الاسلام خواطر وسوانح ، مقدمة فتحى زغلول ص ٤ ـ ٥ .

(٤٤) المصدر السابق ص ٦ ـ ٧ (مقدمة فتحى) .

(٤٥) المصدر السابق ص ١٠٨ .

(٤٦) المصدر السابق ، مقدمة فتحى ، ص ٧ ـ ٨ .

(٤٧) أحمد فتحى زغلول : الآثار الفتحية ص ٧٩ مقال (غوائل الفقر) .

(٤٨) أحمد فتحى زغلول : مقدمته لكتاب ديمولان ص ٣٨ .

(٤٩) انظر على سبيل المثال مقال « عوائد الافراح » ص ٨٧ ومقال « فوائد المصاهرة » ص ٩٤ ومقال « التمدن والتقدم » ص ١٥٣ بكتاب الآثار الفتحية .

(٥٠) جوستان لوبون : سر تطور الأمم ص ١٥٨ — ١٥٩ .

(٥١) أحمد فتحى زغلول : المحاماة ، ص ٢٣ — ١٠٩ عرض تاريخى للموضوع .

(٥٢) المصدر السابق ص ٢٤٥ — ٢٤٧ .

(٥٣) المصدر السابق ص ٢٤٨ — ٢٩١ ويعترف فتحى بأن هذا ما وصل الى يده من تاريخ القضاء وأنه لو كان له من الوقت ما وسع الزيادة لجاء هذا الباب تاريخا كاملا للقضاء فى مصر ، وانه يترك الباب للمجتهدين الذين يميلون الى ابراز الحقائق التاريخية أنظر كذلك ص ٤٠٢ — ٤٠٩ .

(٥٤) المؤيد فى ١١ يونيو ١٩٠٧ رد أحمد فتحى زغلول على تهنئة وفد المحامين له .

(٥٥) أحمد فتحى زغلول : المحاماة ص ٢٩١ .

(٥٦) أنظر نص مرثية شوقى ، الآثار الفتحية ص ٢٥ وهى قصيدة من ٥٥ بيتا .

المـــــــــلاحق

١ ـ من ملف خدمة أحمد فتحى زغلول

٢ ـ مقدمة فتحى لكتاب محمد عمر سر تأخر المصريين

٣ ـ مقدمة فتحى لكتاب الاسلام خواطر وسوانح

٤ ـ جزء من مقدمة فتحى لكتاب ديمولان

٥ ـ بعض مقالات فتحى فى كتاب الآثار الفتحية

الملحق الأول

(وثائق من ملف خدمة أحمد فتحي زغلول)

١

أحمد فتحي زغلول باشا

- توفى فى ٢٧ مارس ١٩١٤
- تاريخ الميلاد ٢٢ فبراير سنة ١٨٦٣
- ابيانه مركز بلاد الأرز غربا بمديرية الغربية
- بعد أن أتم دراسة الحقوق بأوربا تعين بوظيفة مساعد مندوب بلجنة قضايا الحكومة من ١٢ سبتمبر سنة ١٨٨٧ ٠
- فى ٢٧ يونية سنة ١٨٨٩ تعين رئيس نيابة ٠
- فى ١٤ ابريل سنة ١٨٩٣ جعل مرتبه ٤٠ جنيها ٠
- فى ١٨ نوفمبر سنة ١٨٩٣ تعين رئيس محكمة المنصورة الأهلية ٠
- فى ٢٦ فبراير سنة ١٨٩٦ نقل لمحكمة مصر الابتدائية الأهلية رئيسا ٠

– اعتبارا من ١ يناير ١٩٠٢ جعل راتب حضرته ٦٦٦ جنيها و ٦٦ مليما شهريا .

– عين وكيلا لنظارة الحقانية فى ٢٨ فبراير سنة ١٩٠٧ .

– زيد راتبه ١٠ جنيها و ٤١٦ مليما من أول يناير سنة ١٩١١

– زيد راتبه ١٢٥ جنيها سنويا من أول يناير ١٩١٤(*) .

٢

نحن ناظر الحقانية

بناء على الأمر العالى الصادر بتاريخ ٢٨ فبراير سنة ١٩٠٧ بتعيين حضرة أحمد فتحى بك رئيس محكمة مصر الأهلية وكيلا لنظارة الحقانية .

قررنا ما هو آت :

اعتبار تعيين حضرة البيك المومأ اليه فى وظيفة وكالة نظارة الحقانية من ٢٨ فبراير سنة ١٩٠٧ تاريخ الأمر المشار اليه براتبها ١٢٥ جنيها شهريا .

صدر بسراى الحقانية بمصر ٢٨ فبراير ١٩٠٧

ناظر الحقانية

(ختم) ابراهيم فؤاد (★★)

(★) ملف خدمته ورقة رقم (٧٢) .

(★★) ملف خدمته ورقة رقم (١٥) .

٣

احمد فتحى بك زغلول

رئيس محكمة مصر الابتدائية

يملك

فى ابيانه مركز فوة مديرية الغربية

٢٠ فدانا بالميراث وبعضه مشترى

١٠٠ فدان بور بأراضى الصالحية مديرية الشرقية بالقرب من بورسعيد ٠

حصة فى مبانى ومنازل وأراضى فضاء بناحية ابيانه المذكورة

ونيس تحت يده سوى ما ذكر لا بطريق الملك ولا الاستغلال ولا الايجار ٠

٣٠ نوفمبر ١٨٩٧ (★)

٤

حقانية ناظرى عطوفتلوا أفندم حضرتلرى

أتشرف باحاطة علم النظارة أننى اشتريت مائة وثلاثة وتسعين فدانا وكسور بناحية محلة أبو على الغربية التابعة لمركز دسوق بمديرية الغربية وهى مرهونة للبنك العقارى المصرى ٠

٣ مارس سنة ١٩٠٢
رئيس محكمة مصر
أحمد فتحى (★)

(★) ملف خدمته ورقة رقم (٦٦) ٠
(★★) ملف خدمته ورقة رقم (٦٧) ٠

٥

حقانية وكيلى سعادتلو أفندم حضرتلرى

أحمد أفندى فتحى أحد تلامذة الرسلة المصرية بأوروبا قد عاد الآن متحصلا على دبلوم فى علوم الحقوق ۰ ان هذا الأفندى هو ضمن التلامذة الذين ربتهم الحكومة المصرية على نفقتها ۰ ومع ما هو متحصل عليه من علوم الحقوق تحصل أيضا على اللغتين العربية والفرنساوية ۰

فنشرف بأن نقدمه لسعادتكم مؤملين توجيه عناية سعادتكم اليه بتوظيفه فى وظيفة لائقة به لتنتفع الحكومة بخدماته كما انتفع هو بتربيتها له على نفقتها ۰

(★) ملف خدمته ورقة رقم (١٤) ۰

الملحق الثانى

الحمد لله والصلاة على رسوله(*)

وبعد فان انفع العلوم علم يهدى الباحث فيه الى حال أمته الذى هو فرد منها من صـــعود وانحطاط ورشد وغواية وتفرق وائتلاف وخلل ونظام فاذا رآها فى مصاف ذوى الصفات الصالحات جد معها فى شوطها وافتخر بأنه كان واحدا من تلك الأمة الراقية والقوم الصالحين واذا رآها فى الدرك الأسـفل من سـوء الأعمال وقلة المال وتخاذل الرجال اهرع الى الاصلاح يلتمسه لها من بابه واجتهد فى تبيين النافع من الضار ضاربا الأمثال بأحوال مجاوريها من الأمم وما كانوا فيه وأسبابه وما صاروا اليه وأبوابه مفصلا علل التأخر موضحا وسائل التقدم مشجعا على الانتقال من حال الى حال معيرا بالبقاء على ما ظهر ضرره مشخصا للداء معينا للدواء مذكرا بالآباء الأولين والأجداد السالفين فما هو الا أن يجتمع اليه كثير يعملون بفكرته ويقومون بنصرته فلا يلبثون حتى يعم هذا الفكر الصالح وينتشر النور وهذا هو الاجتماع والعمران ٠

(*) نص مقدمة فتحى زغلول لكتاب « حاضر المصريين او سر تأخرهم » لمحمد عمر ٠

ولقد مضت السنون الطوال وتتابعت القرون والاجيال والناس عندنا لاهون بالخيال مجدون فى الخبال عن هذا العلم النافع غافلون وبغيره مما لا يفيد فائدة مشتغلون وبقى ذلك كذلك الى ان ظهر تحت سماء مصر كتاب الاستاذ الكبير العالم الاجتماعى الشهير ديمولان الذى ابان فيه كل أحوال الفرنسيس فى هيئاتهم الاجتماعية كلها وبين ما فى كل واحدة منها من النقص وقابل ما عندهم بما عند جارتهم الأمة الانكليزية من كمال تلك الهيئات ومتانة أصولها مبينا أسباب ما لديهم من ذلك الكمال ولذلك وسـمه باسم (سر تقدم الانكليز السكسونيين) ٠

ولما اعثرتنى الصدفة بهذا الكتاب ترجمته الى اللغة العربية ليعم النفع به فانه ان بقى على أعجميته كان بالنسبة الى بلادنا كأنه لم يكن ٠

ما وجد هذا الـكتاب مترجما فى ايدى الناس وقرأه العامة والخاصة منهم حتى ترتبت عليه الفائدة التى قصدتها والتفت حضرة الفاضل محمد أفندى عمر الى ما عليه أمتنا المصرية من التأخر والانحطاط فقام ينظر فى الأسباب وطرق لذلك جميع الأبواب حتى استجمع كثيرا من أحوال الأغنياء والمتوسـطين والفقراء وجمع الجميع فى كتاب سماه (حاضر المصريين أو سر تأخرهم) ٠

تصفحت هذا المؤلف الجديد فاذا هو قد ألم بالمطلوب ووفى البحث حقه فتكلم عن اخلاق الطبقات الثلاث التى تتألف منها أمتنا المصرية وعن عاداتها وحالها فى كل مجتمعاتها بما ابان العلة وشخص الداء وارجع جميع الأدواء الى أصول الأخلاق وبرهن على ان العمل انما هو الموصل الى السعادة ٠

الحق أحق بالاتباع والضرر انما هو فى تمويه الحقيقة بما

يسمونه تسترا والنصح ان كان مرا ربما حلت عاقبته وحمدت غايته على انه ان كانت النصيحة بالتى هى أحسن فلا يضيع فيها الصدق بالاخبار عن الواقعيات وقد يكون الواقع أشد ما يكون سماعه على النفوس فلابد اذن من أن يتحرى الناصح الحق ويبين العيب ويدعو الى التنصل منه والتنحى عنه ولابد من ان البذرة تنبت متى وضعت فى أرض صالحة واستكملت الشروط وكل النفوس صالحة لتلقى النصيحة ولا ينقصها الا أن يكون زارعها مستجمعا لشروط القبول ومتى صلحت النية فكل عمل صدر عن صاحبها فهو وان كان صعبا يكون مقبولا ٠

كان يسرنى كثيرا ان انتقد على هذا الكتاب فى موضوعه فأقول ان هذا العيب الذى ذكره مؤلفه فى الصنف الفلانى غير موجود ونسبته اليه غير صحيحة غير انى آسف أسفا شديدا لما رأيته من أن صاحب الكتاب لم يذكر عيبا فى طبقه ولم يندد بعادة ولم يعير بخصلة ولم يتعرض الى خلة الا وجدته بعد التدقيق مصيبا فيما قال صادقا فيما نسب بل رأيته مستعملا الرقة فى البيان والتلطف فى المقال ٠

الحقيقة التى لا ريبة فيها ان مجموع الأغنياء منا منصرفون عن هذا العالم بأسره غير عالمين بأنهم فى هذه الدنيا فما عليهم منها اذا عمرت أو عمها الخراب ولذلك نرى كل واحد منهم وحده يهيم فى لذاته غير مبال بضياع المال الذى جاءه عفوا بطريق الصدفة لأنه ابن فلان وارتفعت فيما بينهم صفات التعارف وضاعت من أيديهم ثقة كل واحد بأخيه فكانوا بذلك هملا تضيع ثروتهم ولا يعلمون ويؤخذون على غرة وهم غافلون وهم أولى بأن لا يعدون من الأمة فضلا عن أنهم هم العالون ٠

سرت هذه الحال من الأغنياء الى المتوسطين لأنهم أقرب اليهم

وربما خالطوهم أو سمعوا من أخبارهم والوهم قتال فتشبهوا بهم على غير روية وقلدوهم بحكم تسلط طبع القوى على الضعيف فمالوا ميلهم وطبعت نفوسهم على محبة الظهور الباطل وتنافســوا فى الشهوات وتفانوا فى اللذائذ وقالوا انا أطعنا سادتنا وكبراءنا ولم يقولوا فأضلونا السبيل فكانوا بذلك خاسرين ضائعين ٠

الفقراء وهم السواد الأعظم مســيرون لا مخيرون وليس فى أيديهم ما يصــرفونه هبــاء فى لذة ورأس مالهم الذى هو قوتهم وعافيتهم وصبرهم على تحمل المشاق مدخر عندهم فى خزانة الكسل وليس لهذا مفتاح الا نصح الناصح مسموع الكلمة وهو لا يكون الا من طبقة أعلى بحكم العادة القديمة وهذا كما تقدم لا يهمه صلاح ولايعنيه فلاح فى نفسه فما الظن به فى غيره ان نام الفقراء وضاعت رءوس أموالهم التى اكتســبوها بالطبيعة وكانت تنفعهم كثيرا لو صرفوهم فى تحصيل الرزق الواسع وما هم بفاعلين ٠

- ١٠

لو التفت الأغنياء والمتوسطون الى ان ذنب أولئك الضعفاء الفقراء فى رقابهم واقبلوا على العمل النافع لانتقل أولئك المستضعفون من حالهم الى ما هى خير منها ولعاشوا فى نوع من السعة والنعيم اذكر أن بعض الأغنياء وغيرهم من كبار المتوسطين اقلعوا من زمان غير بعيد عن استمرار ليالى المآتم الى الأربعين كما كان الحال من قبل فلم يعمل بالأمر الجديد سوى اثنين أو ثلاثة حتى علق به اصاغر المتوسطين وأخذه قاعدة جديدة عميمة وسمعنا فى كثير من الأندية والمحافل شــديد التنديد بالعادة القديمة والتنويه بالجديدة وانتقل الناس بعد ذلك من تقصير ليالى المآتم الى سير ســرير الجنازة وأخذت العادة الشنعاء تتلطف ولا شك أنه اذا بقى الكبراء على ذلك تبعهم الفقراء وحل الجديد النافع محل القديم المضر فى هذا الأمر وان كان ليس بالعظيم ٠

واذكر كذلك ان بعض الأمراء أقبل اليوم على تحسين حالة الزراعة فالتفت الأصاغر من مجاوريه الى مذهبه ولا أرتاب فى ان الحالة المعاشية يمكن أن تصير الى حسن ثم الى أحسن ان لم يصرف أولئك الأصاغر ما يحصلونه فيما لا قبل لهم به تقليدا للأمراء وكذلك لا أرتاب فى انه لو كثر أمثال أولئك الأمراء لانتشر عملهم الصالح بين تلك الطبقــات فاننى لا أرى هذا الاقبال من الضــــعفاء الا فى المجاورين لقرى أولئك الأمراء ولا أشك فى أنهم لو صلح حال جميعهم فى صرف ما يشتغلونه لصلح حال مجاوريهم كذلك فى هذا الباب وبذلك يتبين صدق ما قلناه من ان علة خسارة الضعفاء هم أكابر الأغنياء والمتوسطين وكذلك هم سبب التقدم والنجاح ٠

وبما تقدم كله يستبين اننى حكمت فى أمر هذا الكتاب بانه كتاب نافع فيما ألف فيه وانه قد استوفى كل ما يقال فلم يبق الا أن أحث الناس على الانتفاع به وان أعلمهم بان ما فيه هو فينا واننا يجب علينا أن نسارع الى الخروج عما وصمنا به بحق وأن مؤلفه لا يبتغى منا سوى الصلاح وكنا أحق بان نطلبه لأنفسنا ولو بدون منبه فمن نبهنا اليه فقد وجب علينا له الامتنان ٠

احمد فتحى زغلول

الملحق الثالث

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه(*) ·

أما بعد فانى عثرت على كتاب فرنساوى ألفه حضرة الكونت هنرى دى كاسترى فى الدين الاسلامى سنة ١٨٩٦ ميلادية ولما فرغت من قراءته وجدتنى منساقا الى ترجمته فلم يدركنى ملل ولا نصب حتى أتيت على آخر الكتاب وعدت فراجعت الترجمة فاذا هى تكاد أن تكون حـــرفا بحرف ثم توجهت الفكرة الى طبع هذه الترجمة ونشرها على الناطقين بالعربية فاعترضنى بعض الأصدقاء بعد أن أريته شذرات من الترجمة وكان من رأيه عدم النشر بالطبع واحتج بأن الكتاب وان كان غاية فى التدقيق قاصدا نهاية التحقيق غير أنه اضطر الى ذكر ما كان يعتقده أو يتوهمه مسيحيو العصور الخالية فى الدين الاسلامى من الشناعات والسباب وذكر مثل هذه الأشياء وان كان على سبيل الرد عليه ربما اشمأزت له النفوس ووقع من المطلعين عليه موقع الاعتراض وعدم القبول · فهو لا يروق من هذه

(*) نص مقدمة فتحى زغلول لكتاب « الاسلام خواطر وسوانح » للكونت هنرى كاسترى ·

الجهة جماعة المسلمين وانني لم يكن ليخطر ببالي مثل هذا الخاطر ولم يدر في خلدي أن يعترض واحد على ذكر هذه الأشياء في الكتاب وهي لم تذكر من المؤلف وهو مسيحي على انها حقائق بل أوردها على انها أوهام علقت بأذهان المسيحيين من تلك الأعصر وترتب عليها ارتسام المسلمين في مخيلاتهم بالصور الشنعاء وأراد المؤلف محو هاته الصور من مخيلات الأجيال الحاضرة فبرهن وأقنع واستدل بالحجة القاطعة على ان تلك موهومات لا نصيب لها من الحقيقة وذكر أسباب ايجادها في النفوس ورغب الى قومه أن يستبدلوا تلك الصورة المشوهة بصورة الاسلام الحقيقي وما يدعو اليه من خير واصلاح · فلذلك لم أعول على رأى ذلك الصديق في التأخر عن الطبع الا أنه أوجب عندي استشارة غيري وغيره فرأيت امام الصديق المعارض أصدقاء موافقين وغيرهم مستحسنين وغيرهم آمرين وبالطبع غلب رأى الأكثرين رأى الواحد خصوصا وانه لم يستند الا على شيء قال ربما يحصل ونحن نقول ربما لا يحصل وان حصل فهو من عدد قليل وانه لو لم يذكر المؤلف ما ذكره من تلك الموهومات ونبه على فساده وبرهن على خلافه لبقي مركوزا في اذهان قومه وبقينا ونبقى عندهم على ما توهمه السابقون منهم اما وقد فعل فلا شبهة في أنه خدم ما استطاع ووجب علينا شكره ما استطعنا ومن تمام شكره اعلام قومنا بكتابه ولكنا لم نرد أن نأخذه بدون اذنه واستمحناه الأذن فيه فتفضل بالاجابة وكان له بذلك كمال الشكر والامتنان ·

على ان امكان اشمئزاز البعض مما جاء في هذا الكتاب من الأقوال التي ردها المؤلف ودل على خطئها بالبرهان لا يقابل الفائدة التي نراها من نشره والذي يقصد الفائدة ويتحرى مآخذها لا ينبغي له أن يلتفت الى ما عساه يكون من نفور بعض القـــراء فانهم لو انصفوا لما نفروا ·

هذا وان قومى لعلى علم تام من أن مقصـــد مثلى حســن وغرضى انما هو التنبيه على انه قد وجد من غيرنا من قام للدفاع عنا بذكر الحقائق وسرد الوقائع التاريخية الصادقة فسفه رأى قومه فينا وأبان لهم وجهى الخطأ والصواب ومن الواجب علينا أن نعرف ما قيل عنا وما دفع به الدافعون وليتهم كانوا منا وان نتعــرف صاحبى الرأيين فنعرف المخطىء ولا ندع له بابا آخر للطعن علينا ونعرف لذى الصنيعة صنعة الجميل فنزيده اعتقادا باستحقاقنا لما صنع وفينا كتاب الله أعظم مرشد لهذا السبيل فقد حكى بعض المذاهب بنصها وفصها ورد عليها بغاية الايضاح والتبيين وعندنا كتب سادتنا الأولين فى علوم الأصول والكلام وكلها تحكى المذاهب الباطلة مفصلة وترد عليها ومن علمائنا السابقين من يوجب حكاية المذهب الفاسد ليتمكن المطلع من الرد عليه بالدليل فاذا كان هذا هو الحال فى المذاهب التى قررها أصحابها ويخشى حقيقة من انتشــارها لأنها مبرهنة بنوع من البرهان وان كان فاسد المقدمات فما الظن بما حكاه الغير عنا على غير وجهه اما غلطا أو قصدا لغرض مخصوص . أظن انه لا يختلف اثنان فى أنه من الزم الواجبات حكاية ما حكوه واشهار ما قالوه واذا كان الغرض فى القسم الأول هو الرد عليه فليكن الغرض من هذا القسم معرفة ما رمينا به وهذا بلا ريب ينتج الرســوخ فى العقيدة عندنا وينتج أيضا اقتناع الواهمين بضــد مما توهموه وهذه النتيجة تقصد لكبار العقلاء ويحبها أفاضــل العلماء .

وفوق هذا فانا ذكرنا ما قالوا قدحا علينا أو طعنا فى ديننا أو صاحبه عليه الصلاة والسلام نرجع الى أنفسنا ونبحث عما اذا كان لأقوالهم من أعمالنا منتزع أم لا فان كان لهم منها منتزع علمنا كما هو الصواب انه ليس من أصل الدين فلا نلبث أن نتباعد عنه ونرجع لأصل الدين القويم ولا نحيد عن العمل به فى أى حال من الأحوال وان لم يكن لهم من أعمالنا منتزع أدركنا أن لهم غرضا مخصوصا

وعملنا على ما يزيل هذا الوهم من أنفسهم أو يدفع بهم الى تغيير غرضهم فينا وهم لا شك مجتنبوه اذا رأوا منا ذلك المنهج المعتدل والسير على الصراط المستقيم فان مقاومة الوهم بمثله لا تفيد ٠

ثم انه لا ينكر ان فى همتنا قصورا عن البحث فيما يعتقده الناس فينا فاذا قيض الله لنا من بحث بدلنا ورد الشبه عنا فما أجدرنا بقبول عمله واظهار الرضا به وما أولانا بنشر تحقيقاته بيننا حتى تعم فائدتها جميعنا وربما جرنا هذا الى الاشتغال بأنفسنا فان ما حك جسمك مثل ظفرك ولا أحسن من ان يتولى الانسان مصالحه بيده مع حفظه حق مرشديه وعدم انكار صنيعهم الجميل ٠

ولقد رأيت للمؤلف من التثبت فى النقل والاعتدال فى الحكم واستعمال الذوق فى الرد واعمال العقل فى النقد وطريقه والاستشهاد بالوقائع التاريخية ما فاق به سواه من مؤلفى زمانه فبان لى ان غرضه الحقيقة أيا كانت ولا أؤاخذه فى بعض مواضع كتابه مما لم يطابق نقله الأحكام الشرعية اذ ربما اعتمد فيه على قول بعض النقلة وربما كان نقله صحيحا على بعض المذاهب التى لم أقف أنا عليها ولذا لم ألاحظ عليه فى الهامش ملاحظات مستقلة وفضلا عن هذا فاننى رأيت أن تكون الترجمة نقلا للأصل برمته ليعلم ماذا أقصد وماذاكتب ويكفينا منه انه طالب للحق وان جاء فى بعض آرائه ما عساه يحمل على الخطأ مثل الذى له فى التأويل والحكاية عن اخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم وأعماله واعتقاداته على انه لا يفوت قراء الترجمة ان الكتاب كتب لينشر بين قوم المؤلف وكان لابد له من ملاحظة أفكار المكتوب اليهم وأحوالهم وربما اضطر فى ذلك الى ابراز بعض الحقائق الثابتة عنده فى صورة الاحتمال والامكان كما يشير اليه كتابه الى ايذانا بنشر ترجمته كذلك لم أشأ أن أكون معه من المجادلين لئلا تضيع الحقيقة أو ينجر الأمر الى الانكار على صاحب مقصد حميد ٠

هذا وانى تارك هنا ما نحن عليه من وقوف حركة النظم ومن تعطيل قوة البحث فى العلوم ومن ترك ما دعينا للعمل به من قواعد الدين ومن الابتداع فيه وعدم العمل بزواجره واجتناب نواهيه ومن اغفال ما حثنا عليه من العلوم النافعة والتربية الناجعة فان ذلك وان كان له مساس بما نحن بصدده الا انه يقتضى الشرح الطويل مما لا يحتمله هذا المقام ولكنا نقول قولة مجملة بأن الاسلام يأمر بالمعـــروف وينهى عن المنكر ولا يرضى منا بالغفلة عن المنافع أو المصالح ويطالبنا بدفع المفسدة ويحثنا على مكارم الأخلاق ويبين لنا ان كل بدعة ضلالة وان كل ضلالة فى النار وان طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة وان العلم يطلب ولو فى الصين وان لا شىء من العلم بضار ولا شىء من الجهل بمفيد وان من أحدث فى الدين ما ليس منه فهو رد عليه · هذه هى تعاليم الاسلام الا أن الأعصر الحاضرة قد خرجت بالدين الى ما ليس منه فعطلت شـــعائره الحقيقية ودخلت فيه البدع وتغلبت المعتقدات الفاسدة على القواعد الصحيحة وتمسك الناس بالبدع وتركوا الفرض والواجبات وكاد القرآن يتلى مع الآلات المطربة والصلاة تؤدى فى الحانات واندثر العلم وانحلت العزائم وقعدنا عن تحصيل القليل من ضـــروورياتنا وتأخرت التربية ففسدت الأخلاق وتناكرت النفوس فاختلفت المساعى وتعاكســـت المقاصـــد فتفرقت المنافع وانحل عقد نظام المســـلمين فأصبحوا أشتاتا يمقتهم الناس ويرمونهم بالانحطاط ويعيرونهم بما تنزه عنه شرعهم ولكنهم ألفوهوبالغوا فى التمســـك به حتى تبدلت الأحوال وصار كما قال صاحب المنار (الجبر توحيدا وانكار الأسباب ايمـــانا وترك الأعمال المفيدة توكلا ومعرفة الحقائق كفرا والحادا واذا المخالف فى المذهب دينا والجهل بالفنون والتسليم بالخرافات صلاحا واختبال العقل وسفاهة الرأى ولاية وعرفانا والذلة والمهانة تواضعا والخضوع للذل والاستبسال للضيم رضا وتسليما والتقليد الأعمى لكل متقدم علما واتقانا » ·

نعم كان هذا كله وأكثر منه مما نمسك القلم عنه وانما سقنا ما ذكرنا معذرة لمن يفهم من الأجانب ان سوء حالنا آت من جهة ديننا وان رضـــوخنا للجهالة احدى دعائمه كما يتبين من عرض أفكارهم فى هذا الكتاب والدين براء منه · وكيف نطلب منه حسن الاعتقاد فى الاسلام وهم يرون المسلمين يأتون من الأعمال مالا ينطبق على عقل ولم يقل به شرع اللهم اذا كان كما فهموه منا · انهم فى الحقيقة معذورون اذا نسبوا أعمالنا هذه الى الدين فانهم لا يفرقون بين ما هو منه وما هو بعيد عنه وليس لهم الا أن يعتقدوا بان عملنا مأمور به لا منهى عنه ·

الى هنا نمسك القلم ونترك القول للمؤلف سائلين القارىء ان يستصحب معه فى قراءة هذه الترجمة ما قدمناه من الملاحظات وبالله الاستعانة وعليه الاتكال فى صلاح الأعمال ·

الملحق الرابع

من نص مقــدمة فتحى زغلول لكتاب ادمون ديمولان « سر تقدم الانكليز السكسونيين »(١)

هذا هو الكتاب(٢) الذى نهدى اليوم ترجمته الى الناطقين بالضاد(٣) عموما والى المصريين خصـــوصا لمطابقة الوقائع التى دونت فيه عن الأمة الفرنساوية لما هو حاصـــل فى بلادنا ولاتفاق البلدين فى كثير من العادات والأخلاق والأفكار التى عنى (٤) المؤلف ببيان جهات النقص فيها · اللهم الا أن الصغيرة لديهم كبيرة لدينا والاستثناء فيهم قاعدة عمومية عندنا ·

ووجه الشبه هذا هو الذى اخترناه سببا فى طلب الاذن من المؤلف · واليك نص ما بعثنا به اليه بعد الديباجة :

لما قرأت كتابكم النفيس « ســـر تقدم الانكليز السكسونيين

(١) المقدمـة تقع فى ٤٧ صفحة وقد اكتفينـا بالجزء الذى يضم من ص ٢٧ الى ٤٧ نظرا لأهميته المباشرة .

(٢) وقد ضبط الكتـــاب وشـــكله وشرح بعض عبـــاراته الأســـتاذ عبد الرحمن البرقوقى .

(٣) الذين لغتهم اللغـة العربية .

(٤) عنى بكذا مبنى للمجهول : أى اهتم به .

أثر عندى بما رأيته من الشبه الكلى بين أمتى وأمتكم : فأخلاقنا أخـــلاقكم وعاداتنا عاداتكم والفـــرق بيننا وبينكم أن العيــوب عندنا كبيرة جدا . ولا شك فى أنه سيكون لكتابكم هذا من التأثير ما يرجع بالفائدة على الأمة الفرنساوية ، لذلك رأيت أن نقله إلى اللغة العربية يفيد أهل بلادى أفهل(٥) تسمحون لى بترجمته .

وقد تفضل حضرته فأجابنى على طلبى فى ٤ يوليو سنة ١٨٩٨ بما يأتى :

« أخذت خطابكم بعد عودتى من غيبة قصيرة وقد سررت جدا من حســـن ظنكم بكتابى ، وفى اعتقادى أن بلدكم يستفيد من تلك الأفكار مثل بلدى فأنا أصرح لكم ، بكمال الارتياح ، أن تترجموه الى اللغة العربية » .

ويحتاج سر تقدم الانكليز السكسونيين فى مطالعته الى دقة نظر وروية حتى لا يفوت الغرض المقصـــود لنا من ترجمته وهو تنبيه الفكر الى أسباب ما نحن فيه من التأخر والانحطاط .

ومن المقرر أن ميلنا الى مطالعة المؤلفات التى من هذا القبيل ضعيف حتى فى هذه الأيام ، وأن المشتغلين بنشرها أشقى العاملين : فان الواحد منهم قد ينتهب أوقات العمل فيها من سويعات نومه ولحظات راحته ويتحمل من المتاعب مالا تقدر قيمته ثم لا يستعيض عن تعبه بلذة أن الناس يقرأون ما أهدى اليهم فيرتاح لكونه كان لقومه من النافعين .

لكن الذى لا يأخـــذ الأمور بظواهرها بل يطلب الحقيقة أنى وجدت ، يعلم أن انزواء رغبة الناس عن مطالعة المؤلفات المفيدة وملهم من العلم بما يجرى فى الوجود من تقدم الأمم بترقى المعارف واتساع نطاق التربية والتعليم لم يكن ناشئا عن بغضهم للعلم أو

---

(٥) الأصح فهل دون الهمزة التى هى استفهام آخر .

نفورهم من القائمين بنشره ، وانما هو مسبب عن طول زمن الترك الناشيء عن الضعف العام الذى ألم بروح الشـــرقى منذ أجيال طويلة حتى أمات ملكه حب الاســتطلاع ، وجعل النظر فى أحوال الأمة خصوصا وأحوال الأمم عموما مقصورا على ما يحس احساسا ماديا ، فلا يتحرك الفكر الا من جانب الشعور الجسمانى ، على أن تحركه انما يكون لمجرد التوجع والتحسر أو لمجرد الابتهاج والفرح الوقتى ثم لا يلبث أن يرجع الى السبات(٦) العميق فيذهل عن أمته وعن نفسه ويصبح كما أمسى ، بل أقل عزما وأكثر هما ٠

ذلك ما أصاب الأمم الشرقية واستحكم فى عقولنا حتى عم الفتور وصار كأنه حالة فطرية فحسبناه خلقا من أخلاقنا وعددنا من يخرج عن حالتنا هذه مبتعدا عن المنهج القويم ومارقا(٧) عن تقاليد الأمة وعاداتها ومهينا لها فيما ترى التمسك به من موجبات كمالها خصوصا اذا جاء بما يكشف القناع(٨) عن المصائب المتولدة من ذلك الخمول ويبين وجه الضرر فيما نحن فيه من الانزواء وندد بما اعتقد ـ كما هو الصحيح ـ أنه أصل الشقاء ومجلبة العناء من أخـــلاق تخالف الغرض من الحياة وطباع تبعد بأصـــحابها عن محجة(٩) النجاة ومعتقدات يقوم فيها الوهم والخيال مقام حقيقة الحال ٠ تلك عادة المرء ان كلت همته ووهن عن القيام بما وجب كان أقرب الى الغضب دفعا لمؤثر يؤلمه ، وانتقاما من نصوح يدب على موضع الألم فتتأثر النفس مع فقد القدرة على نفى أسباب التأثر

---

(٦) السبات : النوم وأصله الراحة ومنه سمى يوم السبت ٠

(٧) من مرق السهم من الرمية خرج من الجانب الآخر ، ومنه يقال مرق فلان من الدين ٠

(٨) استعارة من قناع المرأة ما تقنع به وجهها ٠

(٩) المحجة : جادة الطريق ٠

ويصير المخاطب كمن شد وثاقه(١٠) وانهالت عليه السياط(١١) فلا هو قادر على تحمل الامها ولا هو يجد من وثاقه فكاكا فيكتفى بالصياح والاكثار من النواح وتمتلىء نفسه بالحقد على ذلك المسىء اليه فى نظره فيبيت نفورا منه لا يسمع له قولا ولا يعى عنه فعلا ٠

هذا هو السبب فى الاقبال على مطالعة القصص والخرافات والتهافت(١٢) على اقتناء التافه(١٣) من المؤلفات والتسابق الى حفظ كتب المجون(١٤) ٠ والروايات ، والنفور من القول الجد وهجر النافع واغفال المفيد وفيه تعليل واضـــح لكثرة انتشـــار كتب المجون والهذيان(١٥) وقلة كتب العلوم الصحيحة ٠ فان الأولى لا تطلب شيئا من همة القراء ولا تشغل محلا من مدركتهم(١٦) ولا يتكلفون اكثر من النظر الى الأحرف ليحصلوا(١٧) منها صورة فى الذهن تضحكهم ويدركوا الواقعة تعجبهم ٠ ثم ينقضى الوقت بسلام وغطاء الادراك الحقيقى مقفل عليه ٠ ولأن الثانية تقتضـــى امعان النظـــر(١٨) وتستوقف الفكر وتنساب فى النفس فتحدث فيها من التاثير ما يهيج خاطر المطالع ويدعوه الى العمل أو ينبهه الى الواجب عليه ٠ فان كان من اهل الهمم الساقطة ـ وهو الغالب ـ وجدته يشعر بثقل

---

(١٠) الوثاق بفتح الواو وكسرها : القيد والحبل ونحوهما ٠

(١١) جمع سوط الذى يضرب به ٠

(١٢) من قولهم تهافت الفراش فى النار اذا تطاير اليها ٠

(١٣) التافه الحقير الخسيس من كل شىء ٠

(١٤) أصل المجون أن لا يبالى الانسان ما صنع ، والمراد كتب الهزل ٠

(١٥) يريد الهزل الشبيه بالهذيان ٠

(١٦) اى الحاسة التى تدرك الأشياء ومعلوم أن أول مراتب وصول الم الى النفس هو الشعور ثم الادراك ثم الحفظ الى آخر ما هو مبسوط فى كتب الفلسفة ٠

(١٧) يقال حصل الشىء تحصيلا ٠

(١٨) الأفصح انعام ٠

الواجب المطلوب منه • ومتى أحس من نفسه العجز عن القيام به أسرع الى طرح الكتاب واشتغل عن العمل بالتعنيف والعتاب وربما أوقد النار وأحرق الكتاب كما فعل بعضهم فى العام الماضى بترجمة كتاب الاسلام ظنا بأن احراقه ينجيه من وصمة[19] الخمول الذى انغمس فيه •

تلك حال تسوء عقباها وتدعو الى أسوأ منها ، وقد أحدثت عندنا من انحلال الأخلاق وتمزق الروابط ما ظهرت نتائجه فى جميع مشاعر الأمة وتقاليدها •

هذه المجتمعات أصـــبحت معدومة فى منازلنا حتى بين أهل الحرفة الواحدة ، بل صار هؤلاء أشد الناس نفورا بعضهم من بعض فجهل كل واحد سبيل أخيه وغابت عنه بذلك منفعته ومنفعة مواطنيه وضعفنا بتفرقنا وسهل على المزاحم أن يفوز بيننا فوزا مبينا • نعم يوجد عندنا مجتمعات كثيرة فى هذه الأيام ولكنها حول الكؤوس والأكواب[20] أو فى ميادين الملاهى والألعاب •

وتلك الجرائد على كثرتها وانتشارها لا يقرأ منها فى كل يوم الا سافر فلان وعاد فلان ونشكر فلانا ونحذر فلانا ، وهكذا وكله راجع الى ذلك الحال[21] الذى استولى على الأمة فجعلها لا تقبل الا ما يوافق الكسل ويلائم عدم الحركة فى كل شىء • أما ما كان فى تلك الجرائد مما يرشد الى فضيلة أو ينبه الى رذيلة أو يوضح حقيقة فحظه حظ كتب الجد من جعلها خلف الظهر والاستعاضة عنها بما لا يفيد •

---

(١٩) الوصمة العيب والعار •

(٢٠) جمع كوب : الكوز الذى لا عروة له •

(٢١) الحال يذكر ويؤنث فيقال حال حسن وحال حسنة ، وقد يؤنث بالهاء فيقال حالة •

لكن على قدر فقدان الشعور العام فى الأمة يجب العمل على تنبيهه وبمقدار اعراضها عن النافع ينبغى السعي فى حملها على الرغبة فيه ·

ومن الحقائق أن الأمة لا تنهض من رقدتها ولا تهب من سباتها الا اذا خلصت من قيودها وفارقتها الأمراض التى تنهك[٢٢] قواها وتحط من عزيمتها ·

ولا يتيسر للأمة أن تتخلص من آلامها وتبرأ من أمراضها الا اذا عرفت أسبابها وأحاطت بموجبات الضعف فيها ·

فأول واجب على من يطلب مصلحة أمته أن يبين لها مواضع الضعف الملم بها[٢٣] حتى اذا تم تشخيص الداء سـهلت معرفة الدواء ·

وليس من ينكر أننا متأخرون عن أمم الغرب وأننا أمامها ضعاف لا نستطيع مغالبتها ولا يسعنا أن نفوز ببغيتنا مادمنا ودامت على هذا الحال :

نحن ضعاف فى كل شيء تقوم به حياة الأمم ، متأخرون فى كل شيء عليه مدار السعادة · ضعاف فى الزراعة وهى الأس[٢٤] المتين الذى تقوم به حياة الأمم والشعوب فلا مطمع لرجل لا يحصل عيش يومه ولا حول لأمة لا تجد ما تقتات منه · وبالزراعة تأمن الأمة غائلة الشقاء[٢٥] المادى فتتمكن من النهوض الى الحياة الأدبية

---

(٢٢) من نهكته الحمى هزلته .

(٢٣) الم بها : نزل بها .

(٢٤) الأس والأساس : أصل البناء .

(٢٥) الغائلة : الفساد والشر والهلاك .

وطلب الكمال ، ونحن لا نعرف حتى اليوم من أصولها غير شق الأرض بقطعة من حديد مركبة فى كتلة من الخشب يجرها ثوران ، ورمى البذور كما كان يرميها آباؤنا ثم انتظار الربح بعد ذلك من وراء الكسل والانكماش(٢٦) وأهل الغرب يستحدثون لاصلاح الاراضى كل يوم جديدا ويخترعون من الآلات ما تتضاعف به الهمم وتشتد به الأيدى ويؤلفون الشركات للقيام بما يعجز عنه الأفراد من جلب المياه وتصريفها وجمع الحاصلات وبيعها وغير ذلك مما جعلهم يستغلون(٢٧) الصخر ويستنبتون الجبال ، والزراعة عندنا حليفة(٢٨) الانحطاط ٠ فالفلاح هو ذلك المسكين الذى اقتفى أثر أبيه القديم فى عمله ولم يجدد بعد طريقه ولا صنفا، فاكتسى أردأ الملابس وتغذى بأخس المأكولات وقضى حياته فى أدنى المساكن ، وهو أبو الجهالة المحقر المرذول ، فلا نزال نقول عن أنفسنا اذا أردنا أن نبالغ فى ذم أحدنا بالجهل انه فلاح ٠

ضعاف فى الصناعة لأننا أهملناها وجهلنا طرائقها فاصبحنا وليس منا الا الفعلة والحمالون ومنفذو ارادة الأجنبى ، نشقى ليسعد ، ونموت ليحيى ٠ هذه المعامل الفسيحة والمصانع العظيمة التى أقيمت بين بيوتنا كلها للأجنبى ، واذا زرتها وجدتها تنقسم الى أقسام مختلفة بحسب طبيعة العمل المطلوب وفى كل قسم رئيس من الافرنج والكل بعد ذلك مصريون ٠ هذه المبانى الشاهقة ، والقصور الشامخة ، شيدت كلها بيد المصريين لكنهم كانوا فى تشييدها من الأجراء يعملون بمشيئة الأجنبى ولفائدته ٠

ادخل بيت عظيم من عظمائنا أو بيت شيخ من علمائنا أو بيت

---

(٢٦) المراد بالانكماش ها هنا التقبض من انكماش الضرع وهو تقلصه .

(٢٧) أى يجعلون الصخر يأتى بالغلة .

(٢٨) ملازمته .

راهب من رهباننا او بيت حقير من أجرائنا ثم اعدد ما فيه من أنواع الأثاث والأمتعة وانظر الى بنائه وما يتركب منه ، ووزع كل شيء على صانعه وابحث عن يد المصرى فيه لا تجدها الا فى قطع الأحجار ورصها وما بقى كله من آنية طعام وموائد وأخشـــاب وأطالس(٢٩) وحرائر وبســـط وحديد ومقاعد ومصابيح وأكواب ومفاتيح وألوان وملابس ومطابخ وكل شيء صنع الأجنبى(٣٠) ٠

ضعاف فى التجارة فلا نعرف منها غير أن الرجل منا يشترى الصفقة(٣١) من المخزن الكبير ويجلس بها فى حانوته الصغير حيث يفتحه متأخرا ويقفله قبل المســـاء ويتحادث مع جاره طول النهار واذا جاءه طالب أجلسه مكانه وبالغ فى مؤانسته واكرامه بما ينقضى به الوقت والرجل ما اشترى والتاجر ما استفاد ، وهو يحسب من التجار(٣٢) ذوى المكانة والاعتبار(٣٣) مع أنه لا يعرف أين تصنع بضـــاعته ولا من الذى جلبها اليه ولا ثمن مادتها الأولى ، ولله الآخرة والأولى ٠ لذلك ضرب الأجنبى على أبواب التجارة وأحيطت بسور من علمه وهمته فاستأثر بصادراتها ، واختص بوارداتها ، وأنشأ الشركات توسعا فيها واستخدم الوطنيين سماسرة لا يكسبون من كدهم الا اليسير ٠

ضعاف فى العلم ، اللهم الا فى علم مداره جهل حقائق الأشياء فى الوجود أما المفيد منه فقد اقتصرنا فيه على ما يختص بعلاقة الانسان مع ربه والباقى منه أخرجناه عن معناه الصحيح وحكمنا

---

(٢٩) جمع أطلس : ثوب من حرير منسوج ٠

(٣٠) صنع الأجنبى خبر قوله ما بقى ٠

(٣١) أصل الصفقة ضرب اليد على اليد فى البيع مما هو علامة وجوب البيع ، ومنه يقال صفقة رابحة وصفقة خاسرة ٠

(٣٢) التجار بكسر التاء وتخفيف الجيم وبضم التاء والتشديد ٠

(٣٣) يريد الاحترام ، والاعتبار بهذا المعنى غير صحيح ٠

عليه بالاعدام وشـــهرنا(٣٤) المشتغلين به حتى أمتنا روح التقدم وأطفأنا مصـــابيح العرفان فى الأذهان ٠ أين منا المؤرخ والنباتى والطبيب والكيميائى والمهندس والطبيعى والأديب والمنطقى واللغوى وعالم الأخلاق والحكيم والفلكى وعالم الزراعة وغير هؤلاء ؟! نعم نحن لا نعدم نفرا منهم ولكنهم قليلون ، بدليل أنه لو كان عندنا منهم عدد يكفينا لما وجد الأجنبى بيننا على هذه الكثرة التى نشاهدها لأنه ما كان يجد عندنا ذلك المرتزق الفسيح ٠

ضعاف فى العزيمة فلا يبدأ الواحد منا بعمل الا وقد أدركه الملل وأحاط به الفشل فترك عمله وتقهقر فرحا بســـلامته ، واذا قام أحد منا بمشروع يقتضى المعونة لبيت دعوته من كل مكان حتى اذا آن أوان الشروع فى العمل هرب كل واحد من ناحية وأصبح صاحبه يندب الوقت الذى قد أضاعه فيه ، بل ربما وجد فى نفسه ارتياحا أيضا لأنه كان قد عرضها لأمر يجر اليه ضررا ، بل ان تلبية النداء أصبحت معدومة لكثرة ما كان من الفشل والخذلان فماتت بذلك روح الطلب واستولى الخمول على كل الطبقات وانفرد أولى العزيمة بمثل هذه المشروعات ٠

ضعاف فى الألفة والمودة فكل يوم ترى الأصـــحاب أعداء والأصدقاء متنافرين وأهل العلم متباغضين متحاسدين ٠

ضعاف فى النخوة (٣٥) والشعور الملى والجامعة القومية :

فالعظيم منا يهان والكبير ينتابه(٣٦) الزمان وأمثاله ينظرون اليه فرحين بمصيبته مستبشرين بنكبته أو آسفين من بعيد بحيث لا يسمع لهم صوت لمعونته ، والأصاغر يشتمون جهلا أو انتقاما ٠

---

(٣٤) يريد شنعنا عليهم وجعلناهم شهرة ٠

(٣٥) أصل النخوة العظمة ، والمراد الشهامة والمروءة ٠

(٣٦) يريد يصيبه الزمان بنوبة ٠

وما درى العظماء أن ذل الواحد منهم ذل لهم أجمعين ، ولا حسبت الطبقات النازلة أن زوال الطبقات العالية من الأمة بمثابة(٣٧) زوال الروح من الجسم لأنها سياج(٣٨) الأخلاق ومرجع صيانة العادات ومشخص الأمة فى حياتها وشعورها ولا حياة لقوم لا يشعرون ·

ضعاف فى الخيرات فما أثقل طلب الاحســـان على أغنيائنا والموسرين ·

ضعاف فى طلب حقوقنا فالرجل منا يســـلب حقه ويهان ملكه وهو يقول لا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم وحسبنا الله ونعم الوكيل ·

ضـــعاف فى أداء الواجب علينا فكل من أقام فى عمل يهرب منه ، ان كان رئيسا اســـتعمل الرياسة فى البطالة(٣٩) واتخذها شـــعارا(٤٠) بعدم العمل ورمى أحماله على مرءوسيه ، وان كان مرءوسا طفق يندد بالرئيس وَيقول كان يجب عليه أن يعمل كذا وكذا ولقد أخطأ فى كذا وكذا وعاقبونى لأنى قمت بالواجب ولكنهم قوم لا يعقلون ·

ضعاف فى الاعتبار(٤١) بالحوادث فنحن ننسى كل شىء وقد يكون النسيان حاصلا فى زمن التذكير ، لذلك نقع فى الخطأ بعينه كل يوم ·

---

(٣٧) يريد بمنزلة .

(٣٨) أصل السياج الحائط وما أحيط به على شىء .

(٣٩) هى الرياسة والرآسة ، أما البطـالة بفتح الباء فمصـــدر بطل الأجير يبطل بطالة أى بطل .

(٤٠) الشعار فى الأصل ما يلى الجســد من الثياب والمراد ألزق البطالة بنفســه كلزوق النجار من الثياب بالجسـد .

ضعاف فى حفظ ما ترك الآباء فكل يوم تشرق الشمس(٤٢) على بيوت دمرت وأملاك تفر من أيدى وارثيها فتتلقفها أيد(٤٣) عرفت مكان الضعف منا وتنبأت بزوال النعمة عنا فتربصت بنا ريب الزمان(٤٤) ٠

ضعاف فى التحصيل فالرجل يولد ويتربى(٤٥) ويهرم ويموت وقلما تراه قد حافظ على ما كان فى يده ، والنادر هو الذى يزيد عليه شيئا يسيرا ٠

ضعفنا حتى أصبحنا نرجو كل شىء من الحكومة فهى التى نطالبها بحفظ حياتنا وخصـــوبة أرضنا وترويج تجارتنا وتحسين صناعتنا ٠ هى التى نطلب منها أن تربى الأبناء وتطعم الفقراء وترزق العجزة(٤٦) وتنفى أسباب البطالة وتحفظ الأخــلاق وتلم شعث(٤٧) العائلات وتجمع أشتات القلوب ، هى التى نطالبها بتعويض ما نقص من ارادتنا وتقويم ما اعوج من سيرنا وســـيرتنا وراء هجمات المزاحمين عنا والسهر على مصالح كل واحد منا ، فاذا تأخرت فى عمل من تلك الأعمال باهمالنا رميناها بسوء الادارة واتهمناها بحب الأثرة(٤٨) وألقينا عليها تبعة خمولنا كلها ٠

لا ريب أننا بهذا الزعم قد ضللنا الســـبيل فانما الحكومة

---

(٤١) الاعتبار : الاتعاظ .

(٤٢) شرقت الشمس طلعت وأشرقت أضاءت .

(٤٣) تلقف الشىء : تناوله بسرعة .

(٤٤) ريب الزمان : حوادثه .

(٤٥) تقول ربيته فتربى أى نشأته فنشأ .

(٤٦) جمع عاجز .

(٤٧) الشعث : انتشار الأمر ، ولم الله شعثك اى جمع امرك المنتشر .

(٤٨) يقال استأثر بالشىء أى استبد به والاسم الأثرة .

وازع(٤٩) لا يكلف الا ما اقتضته طبيعته ، وشأن الحكومات فى الأمم تأييد النظام وحفظ الأمن واقامة العدل وتسهيل سبل الزراعة ومعاهدة بعضهم بعضا على ما يضمن حرية التجارة ويشجع أهل الصنائع والحرف كما تقتضيه المصالح المشتركة وعلى قدر ما تسمح به الممكنات · وبالجملة فالحكومة وازع عام لا واجب عليه الا الأمن العام مما يدخل تحته جميع الناس ولا ينفرد بالاستفادة منه واحد بخصوصه ·

وعلى الأمة بعد ذلك أن تستفيد من هذا النظام وتنتهز فرصة الأمن والطمأنينة لتسعى وراء منافعها وتطلب الكمال فى زراعتها وصناعتها وتجارتها وفى نشر المعارف واحياء العلوم وفى أداء الواجب والمحافظة على الحقوق ، وهذا هو الذى أهملناه حتى أضعناه ·

تركنا الزراعة فى انحطاطها والصناعة فى تأخرها والتجارة فى كسادها وصار كل الذى نطلبه من التعليم لأبنائنا وظيفة فى الحكومة يعيشون فيها عيشة الانكماش(٥٠) جريا على سنة الآباء ، وما درينا أن الزمان يتقلب وأحوال المعيشة تتبدل وأن وظائف الحكومة أصبحت آخر الحرف كسبا وأشدها تقييدا لحرية العمل وأقلها مشجعا على الهمة والاقدام لانحصار مزاياها فى ذلك الراتب الزهيد الذى لا يفى فى الحقيقة بجميع حاجات الانسان فى حياته بعد أن كانت مصدر الثروة وموضع الراحة والأمل ومظهر الأبهة والفخر وعنوان الشرف والاعتبار(٥١) ·

---

(٤٩) الوازع : الذى يزع الناس اى يكفهم .

(٥٠) الانكماش هو : التقبض من انكماش الضرع أى تقلصه كما تقدم .

(٥١) يريد بالاعتبار الشرف والحرمة واستعمال الاعتبار بهذا المعنى عامى مبتذل .

(٥٢) يريد العاطلين .

ولما أقفل باب التوظف خصوصا فى وجه العطلة(٥٢) والذين اضاعوا وقتهم فى اللهو واللعب ظن الناس كلهم أن أبواب الرزق كلها أقفلت فى وجوههم وظهرت فى الوجود نشأة جديدة(٥٣) نراها فى الغدو والرواح مجتمعة فى القهاوى (٥٤) ومنتشرة فى الطرقات وهى أعلم الناس بطرق التخريب وأسرعهم الى الانصباب على تمزيق ثروتهم وتبديد ما جمع الآباء ، وأصبحت الشبيبة(٥٥) أقل استعدادا الى العمل الذى يعود على الأمة بالخير وينهض بها الى التقدم والترقى ٠

هكذا انصرفنا عن مصالحنا وأضعنا الوقت فيما لا يفيد حتى أحدقت(٥٦) بنا المصائب وضاقت علينا أرضنا ٠

مصائبنا جهل بما احتجنا اليه ، واهمال لما يعول فى حياة الأمم عليه ، وتمسك بأهداب(٥٧) أحلام قد أشرقت عليها شمس الحقيقة فبددت غياهبها(٥٨) الا من عقولنا ، وبرهنت على بطلانها الا فى خيالنا ، فكان من وراء اصرارنا على التعلق بهذا الخيال أن تربع الأجنبى بين ربوعنا وانفرد بمصالح دارنا وصرنا نتردد عليه لنخدمه وهو يتردد فى قبولنا لكثرة ما أهملنا أنفسنا وقلة ما اهتممنا بمصالحنا وطول غيبة الصواب عنا ٠

بذلك ازددنا ضعفا على ضعف فأصبحت شئوننا فى أيد غير أيدينا وذهبت أموالنا الى غير أهلينا ممن لا يشفق علينا ولا اوم

---

(٥٣) يريد نشأ جديدا أى شبانا .

(٥٤) يريد المقاهى : أى المشارب .

(٥٥) يريد الشباب جمع شاب . أما الشبيبة فهى الحداثة خلاف الشيب .

(٥٦) أحدقت : أحاطت .

(٥٧) أهداب أطراف من هدب العين وهو ما نبت من الشعر على اشفارها او من أهداب الشجرة أغصانها .

(٥٨) غياهبها : ظلماتها .

عليه لأنه استفادها بجده من خمولنا واكتسبها بكده مما أضعفنا · واستخدمنا فى منافعه جزاء ما أهملنا منافعنا · ولأنه رجل ثقفته العلوم وهذبته التربية الصـــحيحة فأنمت فيه الادراك واستنارت بصيرته وقويت ارادته واشتدت عزيمته وعلم أن الحياة لا تقوم الا بالمثابرة(٥٩) على العمل والسعى المستمر فى طلب الكمال ، ومن سنن الله فى خلقه أن يسود العلم على الجهل وأن تعلو القوة على الضعف وأن يبدد النور الظلمات · وعلم ذلك الرجل نور انبعثت أشـــعته وراء عزيمته تضىء جوانب الجهل فمالت من الغرب الى الشـــرق وانكشف الستار عن رجلين أحدهما عالم مقدام ، ومدرك همام ، عزيز الجانب بهمته ، رفيع الشـــأن بفطنته ، والثانى جـاهل قد اســـتولى الجبن عليه فاســـتكان لحكم الزمان وأن تحت أثقال الخمول(٦٠) ·

هذا هو الداء الذى نتـــألم منه وتلك هى الأمـــراض التى تنهك(٦١) جسم أمتنا · وبديهى أن معرفة الدواء صارت سهلة على القراء ·

دواؤنا التربية وسلامتنا فى نشر المعارف والعلوم فعلينا بها بما بقى فينا من شعور وما ترك لنا من الاختيار فى العمل قبل أن يتم الانحلال ويتعذر علينا القيام · نعم ـ لا أنكر أن النداء بوجوب التربية والتعليم يشعر بأن المنادى بعيد عنهما ومثل هذا النداء لا يروق الذين تمكنت من قلوبهم الأثرة وحب الذات وصار أحب الناس اليهم من يهش لهم ويبش فى وجـــوههم وان كان أقلهم رحمة بهم وحنانا عليهم ـ وكلنا ذاك الرجل ـ لكن الذى يسعى وراء الحقيقة

---

(٥٩) المثابرة : المقـاومة .

(٦٠) استكان : ذل ، واستخذى ، وأن الرجـل من الوجع : صـاح

(٦١) من نهكته الخمر هزلته .

ويطلب النفع لقومه مضطر الى التخفيف من تلك العزة الباطلة والاقلاع عن حب ذاته وعدم الاسراع الى النفور من النداء حتى يتبين صوابه من خطئه ويميز ضاره من نافعه ·

وحب الأثرة هذا هو الذى جعل كتاب حضرة صديقى الفاضل قاسم بك أمين (تحرير المرأة) الذى نشره فى الشهر الماضى لا يروق فى عين بعض القراء لأنه يدعوهم الى ترك عادة تأصلت فى النفوس وعدت من الاعتقادات ونسبت غلطا الى الشريعة السمحاء وليست منها فى شىء ، من الأشياء مع أن المؤلف جمع فى كتابه من شوارد الأفكار ورفيع الأقوال ما يعجب به كل محب لخير الأمة طالب لنفعها ولكنه برهن على أن علة تأخرنا سوء حال النساء وعدم تربيتهن وتعدى الرجال على حقوقهن ، فكان ذلك النفور من كتابه لمجيئه على ما يخالف ما ألفته النفوس وارتاحت اليه ·

ولعل سر تقدم الانكليز السكسونيين لا يسلم من مثل هذا الانتقاد ولكنما الأعمال بالنيات ولكل امرىء ما نوى ·

غرضى من ترجمة هذا الكتاب تنبيه الأفكار الى حالتنا التى نحن فيها ومقارنتها(٦٢) بحالة الأمة الفرنساوية لنوقن بعد علمنا بما هى عليه من التقدم والعمران وبما بلغته من الدرجات الرفيعة فى العلم والحضارة(٦٣) والعرفان أنها احتاجت ، وهى على تلك الأحوال ، الى اصلاح شئونها لتضارع غيرها من الأمم فنحن أحوج منها الى التعليم وأشد افتقارا الى التربية وأعوز الناس الى الاشتغال بما ينفعنا فى هذه الحياة ، كما أنى أقصد لفت الأذهان الى أن الزمان يمر بالأقوال والأمة لا تحيا الا بصالح الأعمال ، وأننا أولى الأمم بالجد فى تحصيل سعادتنا فبقدر التأخر ينبغى شد العزائم

---

(٦٢) اما معطوف على تنبيه أو على حالتنا ·

(٦٣) الحضارة بكسر الحاء وبفتحها ·

وتقوية الهمم وادامة السـهر فى العمل حتى نفوز بحظنا من هذه الدنيا ٠

كذلك أريد أن تميل الأفكار الى اطالة النظر فى أحوال الأمة الانكليزية التى تحتل البلاد والى أن عمال الاحتلال هم قوم من ذلك الجنس الذى ألف هذا الكتاب لبيان السر فى تقدمه وسـيادته فى الوجود ، وهم ماداموا فى بلادنا يجب علينا أن نقارن بين أحوالهم وأحـوالنا وعاداتهم وعاداتنا ومعارفهم ومعارفنا وهمتهم وهمتنا وحركتهم وحركتنا واقتدارهم واقتدارنا وكفايتهم وكفايتنا وحولهم وحولنا(٦٤) وثروتهم وثروتنا ، يجب علينا أن نقارن بين هذا كله وبين ذلك كله ، لأننا مضطرون الى معاشرتهم ومعاملتهم والاحتكاك معهم فى جميع أمورنا حتى اذا صح نظرنا وعرفنا الأمر على حقيقته وتشبعت نفوسنا بما هو واقع لا بما نتخيله من غير تبصر وروية اهتدينا الى واجبنا القومى وعلمنا ان كان مجرد القول يجدينا نفعا وهل الأجدر بنا دون الاسترسال مع الأمانى التى لا مرجع لها من عملنا وكدنا أو اطالة التفكير فى الحوادث التى تجرى علينا لنميز الصالح لنا من الضار بنا ولنقصد باب النجاة فندخل منه ولا نبتغى عنه من ذلك الخيال بديلا ٠

غرضى من ترجمة هذا الكتاب أن يكون مرآة يرى القراء فيه أمتين عظيمتين ودولتين فخمتين تتنازعان اقتسام الوجود قد سبقت احداهما الأخرى ، فلما رأت هذه تأخرها جعلت تفكر فى أسباب تلك الأفضلية وقام العقلاء فيها وأرباب الأقلام يخبرونها بأسباب ضعفها ويرشدونها الى سبل الاصلاح فلم تنفر من هذا النداء بل أجابت الدعوة شاكرة مرشديها وثارت مذعورة(٦٥) فى طلب الكمال والتشبه بجارتها ٠ وأخلق بنا أن نتعظ بأعظم منا ونتمثل بمن بيننا

(٦٤) الحول : القوة .

(٦٥) مذعورة : فزعـة .

وبينه فى العلم والتهذيب والقوة والسلطان والهمة والاقدام ما بين الأرض والسماء · ثم نأسف على زمن قضيناه فى التمنى وننفض غبار الأوهام ونلتمس اصلاح شئوننا بأنفسنا ولا نحجم عن سلوك طريق الكد والعمل فهو الذى فيه الحياة ودونه الموت الصحيح ·

غرضى من ترجمة هذا الكتاب لقومى هو غرض المؤلف من نشره على قومه · لذلك يجمل بى أن أستعير فى البيان عبارته حيث يقول :

« ان الحياة ليست لعبا ولهوا وانما هى مغالبة دائمة للمتاعب، والمتاعب لا تحصى والمتاعب متجددة فى كل آن · ولن تنالوا النصر فى هذا الجهاد الا اذا جعلتم كل اعتمادكم على انفسكم لا على غيركم اذ كل ما يمكن أهليكم وأصدقاءكم ومحبيكم وجيرانكم وحكومتكم أن يساعدوكم به أقل فى الحقيقة بكثير مما يمكنكم أن تساعدوا به أنفسكم بأنفسكم اذا عولتم عليها ولم ترجعوا فى أموركم الا اليها » ·

هذا غاية الحكمة ومنتهى الرأى الصواب فاتبعوه ان كنتم للسعادة طالبين ·

وانما رجل الدنيا وواحدها ... من لا يعول فى الدنيا على رجل

أحمد فتحى زغلول

مصر فى اول صفر سنة ١٣١٧ ـ ١٠ يونية سنة ١٨٩٩

الملحق الخامس

مختارات من الآثار الفتحية

البساطة والعلم

لا شك أن الانسان يميل من حيث طبيعته البشرية الى ارتكاب الملاذ البدنية والشهوات النفسانية فهو أبدا يطلب الوصول الى تلك الغايات يستخدم قواه العقلية فى ازالة العقبات والموانع التى تحجبه عن الوصول الى تلك الأغراض وان وجد من زاحمه فى منفعة كاذبة صرف الجهد فى استحصاله عليها وخذلان ذلك فيستبشر الظافر وينقبض المخذول وتتولد الاحن وتكثر المنافسة ويقل الائتلاف وتسرى بين بنى البشر دواعى الشحناء والبغضاء وتفعم قلوبهم حسدا ونفاقا ومراء ودهاء يتمنى كل زوال ما عند الآخر وان انتهز الفرصة لذلك ولج أى باب من أبوابها فان لم يمكنه المجاهرة بمعاكسته كأن يعاند رجلا عظيم القدر كبير المنزلة استعمل الخدعة والنفاق والتلبيس والمراء يتحصن بها من سهام الانتقام وسطوة الاخصام وان أمن بطش من يعانده لكونه وضيع القدر خامل الذكر صوب نحوه ألسنة أغض من الصبر وأحد من السيف يهتك بها حرمة الأعراض ويهدم بها دعائم الآداب وهكذا يلاقيه الآخر بمثل صنيعه بل بما هو أقبح وأردى فتروج بينهم بضاعة البذاء والسفالة وتنتشر على وجوههم امارات الشقاق والاختلاف يمسون متخاصمين ويصبحون متكافحين تحسبهم متحابين وهم اعداء وتراهم اخلاء وهم بغضاء وفى اليقين ان كل قوم كان هذا شأنهم تقل من بينهم موارد الراحة

والرفاهية ويفقدون معالم العز والسـعادة وتعمهم أصول النقم والشقاوة ·

نقول هذا فى شأن الانسان مع ملاحظة قولنا من حيث طبيعته البشـرية فان من تلك الجهة لا فرق بينه وبين جميع الحيوانات لا غرض له سوى الشهوات البدنية يطلبها من أى طريق تيسـر بقطع النظر عن كونها توجب له حطة القدر أو رفعة المنزلة وسواء كان فى ذلك هدم مصلحة الغير أو لا يعرف من الخير الا ما وصل لذاته ولا يدرك الشر الا اذا وقع فى حبائله فتكثر عثراته وتميل الى الشر خطواته وتزل أقدامه من طرق الهداية وتهوى به أعماله الى مهواة الغواية ·

ولا يمكن للانسان ان يتباعد عن تلك الأخلاق القبيحة والعادات الذميمة الا اذا تنورت أفكاره وتهذبت أخلاقه بممارسة العلوم النافعة والفنون المتنوعة فيدرك الأعمال الخـيرية فيلزمها وتتبين له مفاوز الضلالات فيتجنبها ·

فان قيل كثيرا ماسـمعنا مثل هذا القول من أنه لو اجتهد الانسان فى تعليم المعارف والآداب لاعتصم عن فعل القبيح وسلك مناهج الرشاد وكانت أعماله خيرا مطلقا وصلاحا بحتا مع ان ما نشاهده على خلاف ذلك فانه اذا كان الغرض من التعليم هو معرفة الخير من الشر وذلك يكون كافيا فى المقصود قلنا قلما يجهل أحد من الناس الضار من النافع والخبيث من الطيب فكلنا نعلم ان الحسد والكذب والكبرياء والنفاق والاختلاف والتخاصم والعداوة والبغضاء والمداهنة والمراء وغير ذلك من الأخلاق القبيحة والصفات الرذيلة توجب لمرتكبها المقت والهوان والذل والبوار وتبعده عن درجة أهل الفضل والكمال وتحط به الى مواضع اللئام ودرجات الأشـرار ولا يجهل أيضا ان الصدق والامانة والعفة والصداقة والمودة والاخاء

وتهذيب الخلق ولين الجانب وغيرها من الفضـــائل توجب الرفعة لصاحبها وتوصله الى موارد التنعم والاجلال وتؤهله الى الانتظام فى سلك العقلاء الراشدين والأذكياء المتقين ومع ذلك لم تفدنا تلك المعرفة شيئا من هذا فانا نرى الناس لا ينزجرون بما يسمعونه من المواعظ البديعة والحكم البليغة بل هم يعملون على ما تقتضـــيه شـــهواتهم الذاتية لا يحترمون شريعة ولا يوقرون قانونا حتى انه يمكننا أن نقول أن بسطاء الفكر وسذج الأخلاق أقل قبائح من سواهم انظر الى الأشـــخاص المتمهنين بالأعمال الشـــاقة كأرباب الزراعة والحياكة والتجارة الذين تشـــغلهم تلك الأعمال عن مخـــالطة ســـواهم من الناس تراهم مجـــردين من المكر والخـــداع والنفاق والمراء تنطق طبيعة الرجـــل منهم بما يختلج فى صـــــدره من غير تدليس وكذب أو تمليق وبهتان وان دعته مصـــلحته للتكلم بشـــىء من هذا لا يجد لســـانا يســـاعده على التنميق والطـــلاء أو الخـــلابة والدهاء لا يقولون بغـــير ما تكنه أفئدتهم ولايوالون من لا تألفه نفوســـهم وهذا مع محافظتهم على ما وصـــل اليهم من احكام الشـــريعة الغراء يؤدونه مع البعد عن الرياء والنزاهة عن الكبرياء واذا نســـبتهم الى الأشـــخاص الذين نعدهم فى عرفنا أقرب الى التمدن وأعرف بمذاق الآداب لما عندهم من الفرص التى تمكنهم من التنقل فى داخلية القطر من البلاد يســـيرون اخـــلاق مجاوريهم وتعلق بأفـــكارهم بعض الحوادث ويشـــــوقون الى مطالعة بعض الصـــحف يســـتنشقون منها الأخبار والقصـــص رأيت من الفرق بين الفئتين ما ينفرنا من الاجتمـــاع البشـــرى ويزهدنا فى اســـتكمال أســـباب الحضـــارة والعمران ويجعلنا حلفا لســـــذاجة أهل البدو والمفازات لما نراه من نتيجة الاختلاط والاجتماع التى هى المنافســـة فى المواربة والخـــلابة والتفنن فى أساليب القدح فى الأعراض وانتهاك حرمة الشريعة بافتخار فى فعل الموبقات التى تمجها الطبـــاع الســـليمة وتأنف منهـــا الأنفس الأبية الشـــريفة ثم اذا حولنا النظر الى الأشـــخاص الذين درسوا

العلوم والفنون النافعـــة كما تقولون رأينا الخطب أعظم والشـــر أوفر فانهم عوضـــا عن صرفهم ما حصـــلوه زمن التعليم والدراسة من الفكر القويم والدراية الواســـعة للشـــعوب فيما يعود على أنفســـهم بالكمال حتى ترتفع منزلتهم ويعلو صـــيتهم وعلى وطنهم بالرفاهية والعمــار والتقدم والانتظـــام تراهم يصـــرفون ذلك فى ســـفاسف الأعمال وقبيح الخصـــال فلا يكون له التقدم على غيره من الذين لم يطـــالعوا الكتب ويتصـــفحوا أوراق التواريخ الا يكون أعرفهم بأســـاليب الخـــداع والمماراة وأشدهم كمالا لحفظ الضـــغائن والأحقاد يلاقى بغيضـــه ببشـــاشة وجه وطـــلاقة لســـان يعرب فى الظاهر عن مودة واخاء ومحبة وصـــفاء مع أنه يتربص به الذلة ويســـوقه الى بحر الحتف والمنون وهذا فضـــلا عما يعتريه من الكبر والخيلاء ينظر الى الناس بعين الســـخرية والاســـتهزاء والنقيصـــة والازدراء لكونهم لم ينالوا ما عنده من الخبث ولم يدركوا ما أصـــابه من المقت فاذا كان هذا ما نشـــاهده فى أخلاق ذوى الحذق والدراية والكياســـة والنجابة فدعنى أيها الواعظ ســـالكا مســـلك ذوى البله والبســـاطة قاطنا فى أحياء العشـــائر المتقشـــفة اســـتنشق الأرواح النقية واســـتجلب من الفلوات ثمارا بقدر ما تقوم به بنيتى مما تقدر المعدة على هضـــمه وتكون فى أمن من خطره أظن ذلك أقرب الى الســـلامة من مخالطة أهل العمران والدخـــول فى حوزة ذوى العـــرفان ٠

نقول جوابا عن هذا اما ما ذكرته من أن الغرض من التعليم هو معرفة الخير من الشـــر فهو المراد ولكن قولك قلما يجهـــل أحد من الناس الضـــار من النافع ٠٠ الخ ٠ فغير مســـلم لأن المراد من المعـــرفة اســـتكناه تلك الأخـــلاق وادراكهـــا ادراكا صـــحيحا من الجزم الثابت بالدليل بخواصـــها وليس ذلك بالأمر اليســـير أو الخطة الهينة والأشخاص الذين يرددون تلك الصفات زاعمين المعرفة بحقائقها فذلك لما يرونه بأنفسهم من التأثر عندما

يحقدون أو يرمون بذور أو تصل اليهم يد المعروف ولربما ذكروا ذلك تقليدا من غير شـعور مطلقا بالمنفعـة أو المضـرة وعلى الحالتين فبينهم وبين المعرفة التى شرحناها بون بعيد ثم لا ننكر عليك بعض ماذكرته من أخلاق الذين تعلموا العلوم ودرسوا الفنون ولكن ينبغى أن يعلم أن ذلك ما اعتراهم الا من اختلال طرق التعليم وعدم التربية فان الانسـان اذا كان يميل بطبعه الى الشـهوة الحيوانية ومعلوم أنه فى حال صغره يكون مجردا عن الملكات خيرها وشـرها غير شـاعر بمضـار ما يرتكبه من الأخلاق الدنيئة وغيرها آسف على ما لم ينله من الآداب ومكارم الأخلاق فتسـوقه الطبيعة الحيوية الى مواردها من غير تفكر أو تعقـل فيما ينجم عنها من القبائح والدناءات وتتعودها الجوارح والأعضاء حتى تصير ملكة للنفس ومحورا للفكر وتتسـلط فى تلك الحالة الطبيعية على القوى العقلية لتسـتخدمها فى تدبير تلك المصـالح على الوجه المألوف لها فاذا اشـتغل الانسان فى تلك الحالة بمطالعة العلوم النافعة وتعليم الآداب المهذبة نمت قواه المفكرة وتفرغت مداركها ولكن فى حالة السـطوة لجيوش الطبيعة فتقسـرها على مجاراتها واتباع مسـالكها مع العلم بخبائثها ووخامة عاقبتها وتأبى الافكار الى الاقـلاع عن تلك الخطة الذميمة لما فيها من المضـار المتنوعة والبـلايا الكثيرة فيقع التضـارب والتجاذب بين هاتين القوتين فاذا استكملت معدات الادراك وتحصنت بمتاريس الكياسة والرشد اجبرت الطبيعة على مطاوعتها والدخول تحت قدرتها تحركها جهة الكمال وتوجهها الى قبلة الرشاد تأمر بالمعروف وتتجافى عن المنكر تعلم الخير فتطلبه وتسعى فيما يعود على العموم بالعمار والرفاهية والتقدم وتطرح عن كاهلها حب الأثرة والأغراض الشخصية فتلك الفئة هى التى نجحت بثمرات التعليم ونتائج المعرفة أما اذا انتصرت جيوش الطبيعة وبددت جموع الأفـكار انقلبت العلوم شـعوذة والفصـاحة سـفسطة ولا شـك أن الجاهل البسـيط أقـل ضررا وأخف أذى ممن أصـيب بسهام الطبيعة مع مراجعة الفنون

وتصفح كتب العلوم فان هذا أوسـع ادراكا لأبواب الانتقام وأتفن وعاية لطرق الضـلال فاذا كانت تلك العصـابة هى التى نويتها فى مقالتك أيها المعترض قبلت منك ما عزيته اليها ولكن ذلك لا يقدح فى المطلوب فانهم اذا أتقنوا علم الرياضات والطبيعيات وغيرهما من العلوم الصـناعية النافعة فى بابها فذلك لا يفيد النفس من حيث التهذيب فى شيء بل غايتها التبحر والتفنن فى العالم المادى ومعرفة عناصـره وخواصـه ومرادنا من العلوم علوم التربية والأخلاق فاذا لا أقبل منك اختيار البله والجلوس على بساط الجهل لذلك فاننى آتيك بما تتقى من الضير ويبعدك من تلك المخاوف ويحببك فى جنى ثمار العلوم والتسـابق فى ميدان الفنون الا وهو الاعتناء بتربية البنين والبنات فى حالة الصغر زمن البساطة والسذاجة فانهم يومئذ طوع اليد يذهبون معك الى أى طريق أحببت ويدخلون معك من أى باب قصـدت ولا تجد منهم عناء ولا نصـبا ولا ممانعة ولا غضبا يتبعونك كظلك ويطيعونك كنعلك فمرنهم على الأخـلاق الجميلة والصـفات الحميـدة ودربهم على ما فيه شرف النفس ونزاهة الأعمال واياك أن تدعهم يأتون قبيحا أو يلفظون بسـوء متوهما أن ذلك مباح لهم حيث لم يناطوا بتكليف ولم يدخلوا تحت شرائع التأديب فان ذلك ربما لزمهم بعد الـكبر فاذا تعهدتهم كما ذكرت لك وألقيت اليهم بعض المطالب الأولية والمقدمات البديهية من النصائح والحكم يشبون على تلك السجايا العالية والطباع السليمة ثم ابعثهم الى مناهل العلم وموارد الحكم يتغذون بلبانها ويتوشحون بردائها فينتفع الوطن بمهارتهم وتفننهم فى الصـنائع العظيمة القيمة الجزيلة الفائدة وينشرون فى انحاءه رايات التمدن والاصـلاح والثروة والفلاح مع طهارة الذيل وبعد الهمة وثبات الجأش فاذا كان هكذا أبناء الوطن لا غرو أن تخفق على رءوسهم ألوية السعادة هناك يفوزون من الأمة بالشكر الجزيل والفضل العميم .

الآثار الفتحية ص ٦٥ ـ ٧٣ .

ماهية اللغـــة

الفكر حركة نفســـية يحتـــاج فى ظهوره الى معونة الجهاز المخصوص الذى يكون به الكلام · وعليه فالكلام هو حركة ذلك الجهاز المنبعثة عن مجـــرد الطبع أو المدفوعة بالارادة للتعبير عن حركة من حركات النفس ينتج من هذا أن الكلام يتنوع باختـــلاف الشـــارات التى تدل على الأفكار وأن تلك الشـــارات تنقسم الى قسمين : طبيعية وصناعية ·

فالأولى هى التى تصدر عن الذات من حيث هى أى بمقتضى وجودها المادى · وكل شارات هذا القسم عرضية مثل شارات اليد والرأس والعين وبقية الأعضاء ومثل الأصوات التى ليست الفاظا والكلام أى النطق ·

والثانية خارجة عن الذات وهى تحدث من تأثير الانسان فى الماديات الخارجة عنه · وكل شارات هذا القسم جوهرية بمعنى أن لها دواما طويلا كان أو قصيرا كالاعلام والرسم والحفر والكتابة ·

ومما يتقدم يتبين أن الكلام الطبيعى عام لكونه مفهوما بذاته من جميع الناس ومن الحيوان أحيانا كما هو الحال بالنظر لشارات الأعضاء واصوات الغضب أو الاستحسان من غير أن يكون هناك اتفاق سابق على مفهوم تلك الشارات ·

وعلى خلاف ذلك الكلام الصناعى أو الاتفاقى لأنه عبارة عن مجموع الألفاظ المخصوصة الموضـــوعة للمعانى المخصوصة وعن التراكيب أو الصيغ الناتجة من تأليف هذه الألفاظ لتوصـــل الى الذهن بواسطة الأذن أو العين معانى مخصوصة متفقا عليها ٠

وقد يتأتى أن يكون الكلام الصناعى عاما أى ان كل الناس يدركون المراد منه كالرسم مثلا وعلى هذا يتضح خطأ تعريفهم اللغة بأنها أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم ٠

والصحيح أن اللغة هى مجموع العادات المخصـــوصة التى تجرى عليها كل أمة فى التعبير عن أغراضها بواســـطة الكلام أو الكتابة وتقدم بيان معنى الكلام ٠

ولا يصـــح اطلاق اسم اللغة على ذلك المجموع الا اذ كانت النسبة تامة بين اللفظ ومدلوله الا أن قوة اللغة متوقفة على شدة المطابقة بحيث أن الأذن أو العين ترسم فى ذهن السامع أو القارىء صورة المدلول كما هى ولا يتم ذلك الا باجتماع شروط ثلاثة :

(**الشرط الأول**) أن يكون لكل مدلول علامة خاصة به تدل عليه دائما ولا تدل على غيره أبدا ٠

(**الشرط الثانى**) ان تكون هذه العلامة قابلة للتغير بتغير المدلول وتبعا له ٠

(**الشرط الثالث**) انها تكون قابلة للاشتقاق كمدلولها فاذا اشتق منه مدلول اشتق منها علامة دالة عليه بالشروط عينها ٠

وبناء على ما تقدم تكون شروط اللغة الحقيقية بهذا الاســـم ثلاثة أيضا :

(**الأول**) : أن يكون تعبيرها محكما وذلك عبارة عن اتمام المطابقة بين الدال والمدلول ولا سبيل الى هذا الا اذا سهل استعمال

اللفظ على قدر المعنى ولم يزد عن اللفظ المستعمل لأجله وهذا الشرط صعب التوفر فما وفقت لغة حتى الآن لنوال هذه المزية اللهم الا لغة علماء الرياضة بل ان اللغات الأخرى لن تنالها أبدا ٠

(**الثانى**) : الملابسة وهى الخاصة الموجودة فى الألفاظ أو التراكيب أى الصيغ تلك الخاصــــة التى يدرك بها الفاهم نظائر المدلول ونقائضه والملابسة تقتضى تحليل الفكر الانسانى وذلك غير ميسور عادة فى اللغات الأصلية الا نادرا ٠

(**الثالث**) : الوضوح التام وهو يرجع للشرطين الســـابقين ولصناعة ترتيب الألفاظ وتركيب الجمل ترتيبا وتركيبا ينتفى معهما الابهام ويرتفع الشـــك والالتباس ومن اللغات ما تميل بأهلها الى الأغرب فى التعبير وهذا هو السبب فى ظلمتها وتعسر فهمها وكلما كان القول طبيعيا أى بسيطا ازداد وضوحا فالبساطة هى أمثل طرق الكلام على انها طريقة العلم والواقع وهى التى يسهل بها التعبير عن الأفكار وحركات النفس كما ينبغى ٠

وكأنى بحضراتكم وقد استنتجتم مما ذكرته الآن خطر مذهب التجوز أو الاشتراك فى اللغة وذكرتم انه يذهب بجمالها ويخفى من وضوح دلالتها ويجعلها ثقيلة على أهلها بعيدة المنال على طلابها من الأمم الأخرى ٠

سمعت فى الاجتماعين الماضيين كلاما كثيرا فى اللغات الأجنبية وان لها أصلا أو أصولا ترجع اليها وتستمد روح التجدد منها فأهلها فى حل مما يفعلون وأما نحن فلا أصل للغتنا ويبنون على هذه المقدمة نتيجة هى أنه يجب علينا أن لا نعرب كلمة أعجمية لنضيفها الى لغتنا العربية ٠

الحق أنى ما فهمت النسبة بين تلك المقدمة وهذه النتيجة فانى أنظر الى اللغة اللاتينية التى هى أصل لغات أمم أوروبا المعروفة

بهذا الاسم من فرنساوية وتليانية وأندلسية وغيرها فأجدها لغات ممتازة تماما عن ذلك الأصل بل أجد الفرنساوى من حيث هو لا يعرف كلمة واحدة من أصل لغته وكذلك بقية من ذكرنا وأرى أن كل لغة حية هى لغة مستقلة قائمة بنفسها لها قواعد خاصة بها وتراكيب وصيغ تميزها عن أصلها فاذا استعاروا لمحدث جديد اسما من ذلك الأصل فانماهم يستعيرونه من لغة أعجمية بالنظر الى لغتهم · الا ترون أنهم لا يقصرون الاستعارة على اللغة اللاتينية ويتعدونها الى اليونانية القديمة وأحيانا يستعيرون كلمتين وينحتونهما ويصقلونهما ويدمجون هذا المزيج فى لغتهم فيصير جزءا منها ويفسحون له فى كتب اللغة محلا بين كلمتين أصليتين بحسب ترتيب حروفه الأبجدية · انهم يعملون أكثر من هذا · أن لكل بلد عادات فى أكلها وسكناها ولباسها وأطوارها ويتبع ذلك وجود أسماء عند قوم لمسميات لا يعرفها قوم آخرون الا أن التجارة وطرق المواصلات تنقل هذه المسميات أو تجعلها تشاهد فى أماكنها من النازحين اليها فيرى أهل البلد ما يروق لهم من بعض تلك الخصوصيات لأهل البلد الآخر ولا يجدون من لغتهم نصيرا على التعبير عنه تماما لكنهم لا يحارون ولا يعقدون الاجتماع تلو الاجتماع ولا يفترقون شيعا وأحزابا بل يقدمون على تناول المسمى واسمه ويدرجون عليه من ساعتهم فيمتزج بلغتهم ويعرفه الكل ويتحرونه فى حديثهم أن يلفظوه كأنهم فى نطقهم به من أهله والأمثلة على ذلك لا تحصى يعرفها كل من تعلم لغة واحدة أجنبية · هم يعملون ذلك حتى فى العلوم فترى الحكيم الفرنساوى وهو يقرر مذهبه عند ما يأتى على ما يخالفه من مذاهب الألمان اذا وصل الى معنى خاص باحدهم لم يفكر ان يعبر عنه بغير لفظه الألمانى وهكذا ثم يذكر بهامش كتابه معناه ·

ما كان هذا ليفسد لغة من تلك اللغات ولا يثير عاطفة الحنان والاشفاق عليها بل ما ازدادت لغاتهم بهذا الا طلاوة ويسرا بل تكاد

هذه الطريقة تجرى عند الأمم الغربية عادة لتكون الألفاظ الغريبة عن لغتهم برهانا على سعة مداركهم ورحب صـــــدورهم لكل نافع وكل مفيد ولتكون دليلا على مصدر المســـمى ومذكورة بجزء من ترجمته ٠

قالوا ان ذلك جائز عندهم لتماثل أحـــرف هجائهم واتحاد صـــورها وأشـــكالها وأما نحن فلا قبل لنا على عمل ما يعملون لاختلاف أحرف هجائنا وصورها وأشـكالها ولســـت أرى فى هذا الاعتراض الا انه دليل أحد أمرين فاما شـــعور بعجزنا عن المجاراة لفتور فى همتنا أو قصور فى معارفنا واما أن أحرف هجائنا وأشكالها وصورها محتاجة هى أيضا الى الاصلاح لنتمكن من تناول كلمات الغير بأشكال وصور تجعلنا ننطق كلماتهم كما ينطقون وننقل عنهم كما هم عن بعضهم ينقلون ٠

نحن اما عرب أو مستعربون واما أجانب عن لغة العرب أو مولدون فان كنا الأولين فلنا حقنا فى التصرف بلغتنا كما تقتضيه مصلحتنا وان كنا مستعربين فبحكم قيامنا مقام أصحاب هذه اللغة وبكوننا ورثناها عنهم بعد ان بادوا فليس من له أن ينازعنا فى استعمال ما كان مباحا لآبائنا من قبلنا وان كنا أجانب أو مولدين فمن له أن يســـيطر علينا ويحرمنا ثمرة الكد فى حفظ هذه اللغة وتفضيلها على غيرها من سائر اللغات فيلزمنا بالبقاء على القديم ويحكم علينا بالجمود واعتقال اللسان ٠

أخذ العرب العلوم عن أهلها ونقلوها الى لغتهم فلما وجدوا منها استعصاء فى بعض المواضع ذللوها واخضعوا الغريب عنها لاحكامها فأيسرت ودرجت بعد الجمود فكانت لهم نعم النصير على ادراك ما طلبوا من نور وعرفان ٠

نسينا نحن أن زماننا غير زمانهم فكانوا أصحاب حول وطول وذوى مجد وسلطان ونحن على ما نعلم من الضعف والانزواء على

انهم فى عزهم وبعد فخارهم وتمكنهم من أنفسهم لم يعتزوا بلغتهم فنفروا من العجمة لأنها عجمة بل استخدموها حيث وجب الأخذ بها تمكينا للغتهم وحذرا من أن يصيبها الوهن اذا قعدوا بها عن مجاراة تيار التقدم وهم أولو الرأى فيه وخوفا من أن يعيقهم الجمود فيها عن حفظ مركزهم العظيم بين الأمم التى كانت تعاصرهم أيجوز لنا أن نتخلف عن السير فى طريقهم والاسترشاد بهديهم والعمل بطريقتهم بحجة انهم انقرضوا وبادوا فلا حق لنا فى متابعة الرقى ولا يجوز أن نخطو بعدهم خطوة الى الأمام لكن من الذى استأجرنا حراسا من الحراس على هذه الوديعة وأى قوة أخضعتنا على الوقوف هذا الموقف موقف الاستكانة وقطع الرجاء وفقدان الهمة وانحلال العزائم انقص فى الافهام أم قصر فى الأجسام أم جهل بأنا من البشر لنا كل حقوق الانسان ·

ليس لنا أن نتمسك بالقديم لقدمه وان أصبح عديم الجدوى والا فأولى بنا أن نكف عن الدروس والمطالعة وأن نكتفى من كل شىء بما ورثنـــا من الآباء لنعيش كما عاش الأولون · غير انى أرجوكم ان تتعلموا الصبر فلا تجزعوا اذا اصابتكم مصائب التقدم فتركتم آخر القوم ولا تحزنوا اذا هصرتكم عوامل الرقى فمنيتم بمن يقف متفرجا عليكم وأنتم كالصـــور المتحركة الناطقة لكنها تتحرك بحركة هى عبارة عن اهتزاز الشىء مكانه وتنطق بلغة دائرة قد خلت من العلم الذى أصبح دارجا على ألسنة المتفرجين ·

جزع خصوم مذهبنا على اللغة العربية وحسبوها طعاما سهل التناول والهضم فى معد اللغات الأعجمية فاستجاروا من التعريب وصاحوا اننا لا نطيق اسما أعجميا يدخل عليها ·

أليســـت هى تلك اللغة الحافلة بالألفاظ والتراكيب العالية والقول الفصيح المصونة بكتاب الله وسنة رسوله صـــلى الله عليه

وسلم وهى لن تتأثر ببعض كلمات تدخل عليها فى كل عام بل ان هذا العمل مما يؤيدها ويشد أزرها ويرفع مقامها بين اللغات فلا يطمع الأعاجم فى اعتبارها من اللغات الميتة ٠

قالوا ذلك يفسد علينا لغة القرآن وما أسد ما أجاب به عن هذا الاعتراض حضرة الفاضل السيد رشيد أفندى فلا خوف على القرآن مادام فى الوجود مسلم ٠ ألا ترون أن القرآن محفوظ مصون عن من لم يعرف العربية من المسلمين ٠ اليكم الترك والهند والصين والقوقاز والروسيا تلك أمم تعد خلقا كثيرا من المسلمين لا يعرف الواحد منهم غير لغة أمته وهو مع ذلك يحرص على القرآن أشد من حرص الجبان على دمه ٠

أيعجزكم أن تحافظوا على القرآن بيمينكم وتفسحوا المجال فى لغتكم للتقدم باليسار وتنالوا السعادتين وتكونوا من الناجحين فى الدارين ٠

قالوا العلم نافع ، قالوا كثير منه مخـــالف للدين ، قالوا الحضارة تهددنا فلنتقيها بها ، قالوا هى تخالف الدين ٠ قالوا حدثت مســـتحدثات فســـموها ، قالوا حرام عليكم ان كنتم فاعلين ٠ من هذا قال الفرنج عنا انا قوم جامدون وما جمودنا الا من الدين فصحنا مع هذا وقلنا لهم بل أنتم قوم ظالمون ٠ مالنا وللدين نجره فى كل أمر ونقيمه حاجزا فى وجه كل باحث حتى فى الأمور التى يأمر هو بتناولها ٠ يأمرنا الدين بتعلم ما خلق الله وأن نسير على سنة التقدم التى سنها للبشر ونحن كل يوم فى احجام بدعوى يعلم الله مقدار بعدها عن الحق والصواب ٠

عليكم بالتقدم فادخـــلوا أبوابه المفتحة أمامكم ولا تتأخروا فلستم وحدكم فى هذا الوجود ولا تقدم لكم الا بلغتكم فاعتنوا بها

وأصلحوها وهيئوها لتكون آلة صالحة فيما تبتغون لا تكثروا من الاشتقاق الخارج عن حد القياس المعقول · ولا تشوهوا صورتها الجميلة بتعدد الاشتراك أو التجوز ثم لا تقفوا بها موقف الجمود والعجمة تهددها على ألسنة العامة وهي لا تلبث أن تدخل على لغة الخاصة أقيموا في وجه هذا السيل الجارف سدا من الاشتقاق المعقول والترجمة الصحيحة والتعريب عند الضرورة لتكونوا من الناجحين ·

الآثار الفتحية ص ١٠١ ـ ١١٠ ·

علموا الأمة علموا الأمة(١)

ســـــادتى :

رجعت الى المعاجم ألتمس منها كلمات تســــموا معانيها الى سماء فضلكم أو صيغة حمد تفى بقليل من واجب شكركم ، فما راقنى لفظ ولا شاقنى معنى ورغبت عن التنقيب والاستفادة ، الى الاقرار والشهادة ٠

أنا عاجز ، نعم أنا عاجز عن ايفائكم حق الثناء لقاء صنيعكم لكنى لن أعجز عن الاحتفـــاظ بعهدكم ، والبقاء على الدوام متأثرا بجميلكم ٠

شرفتم هذا المكان لتكريم خادم ظننتم به خيرا وما خيره الا منكم وأردتم أن تولوا له فضلا والفضل أنتم مواليه ، ولا أرى فى اجتماعكم هذا الا حركة نفيسة من حركات الأمة تقطع دور السكون وتعن يقظتها وشخوصها نحو الرقى بعد ان اختمرت الأفكار وتمكن اليقين بأن لا حياة الا بالحضارة ولا حضارة الا بالعلم ، وما أنا الا ذريعة اتخذتموها للقيام بهذه الحركة المباركة ٠

---

(١) وهى الخطبة التى القاها الفقيد فى حفلة تكريمه رحمه الله رحمـــة واســـعة ٠

هذا مظهر خلق جديد كمن حتى اكتمل وسكن حتى نماوتم ، خلق لا تقوم أمة بدونه ، وهو عماد كل رقى هو محبة الكل خير الكل فى كل فرد من الأفراد ، وظهور هذا الخلق دليل على ما للأمة من الصفات الكريمة الأولية ، ومن الأخلاق الفطرية الاجتماعية ، مما اذا عولج صفا وأعلى مكانتها ووصل بها الى الدرجة التى تستحقها فى هذا الوجود ·

من يخبر حال هذه الأمة ويقف على كنه خلقها ويعرف جيدا حقيقة خصالها ، ويدرك الصـــحيح من آمالها ، وينعم النظر فى أعمالها ، يقتنع أن التربة زكية لا يفسد زرعها الا شىء من البذور الرديئة ، وبأن الخلق كريم يغشاه ستار من عدم العلم التام بالواقع، وبأن الآمال كبيرة شريفة لكنها مشوبة بشكوك وأوهام تطوح بنا يوما ذات اليمين ويوما ذات الشمال ، أما أعمالنا فثمرة هذا وذاك ، نهتاج والسكون واجب ، ونلهو وكل النجح فى العمل وما كان شىء من كل هذا يكون لولا خطأ فى تقدير حقيقة حالنا ، وعدم التفات الى حركة البيئة التى نحن فيها ، ونسيان لشىء كثير من الماضى ولهو عن الحاضر وعدم اهتمام بما هو آت ، ومحال أن تدوم هذه الحال فلابد لنا من اعداد العدة اللازمة لذلك التحول وما هى الا العلم ·

العلم هو سلم الأمم الى حضارتها ، فهو كاشف ظلمات الجهل ومســـدد الآراء · ومنجح كل مجهول ، هو الذى اخترق الأرض فأخرج مكنوناتها ، وحكم فى المادة فاستلب منها كنوزها ، وتسلط على البحار فسادها ، ورمى الى الجو فحلق فى القبة الزرقاء طالبا للناس علوا وكمالا ، وقرب الأبعاد فأضاف الى الوقت أوقاتا ، وضم الى حياة الانسان حياة وحياة ، بهذا أنار البصائر ، وشد العزائم وقوى الهمم ، فأنهض الأمم وأعلى كلمته التى كان حظها منه وفيرا ·

أرجو أن يكون فى مظهركم هذا دليل على أننا قطعنا دور التنافر والتفرق وعرفنا الصواب بعد أن حجبته عنا الأوهام زمنا طويلا ،

ودخلنا من باب العمل الصحيح النافع ، واقتنعنا بأن الضعف وم
الضعف الا الجهل يطمس على القلوب ويجعل القوم يرون حسنا مـ
ليس بالحسن ويظنون أن التأخر آت من عارض خارجى ، وانهم اذ
قعدوا عن التماس وسائل التقدم فالمقصـــد يجذبهم الى الوراء ،
لكنهم متى عملوا عرفوا أن العلة ذاتية ، وأن الدواء فى اليد ، وأن
قتل الوقت فى الظنة والاتهام مضيعة لما يفيد ، وداع جديد من دواعى
الضعف والتأخر ٠

أرجو أن يكون فى اجتماعكم هذا دليل على السآمة من هذه
الحال بل على الفزع من أخطارها الاجتماعية الكبرى ، وعلى أن
العلم الذى ينبث فينا أخذ ينقى الضمائر ، ويجمع شمل المتفرقين ،
ويطهر السرائر ، ويوحد كلمة المتنافرين ، وينير البصائر فيهدينا الى
أن التآزر شرط النجاح ، وأن يد الله مع الجماعة وان التباغض
مجلبة الشر ، والتنابذ يمهد سبيل الذل ، وأن فى التضاغن تهلكة
للناس ٠

لعل رجائى محقق باقبالكم على هذا المكان ملتفين حول راية
واحدة مع اختلاف العناصر والمعتقدات ، ومنبعثين من روح واحد
ألف بين قلوبكم جميعا فتعارفتم وجئتم اخوانا فرحين بوجه باسم
يحيى موجد هذا الروح وباعث ذاك الشعور ـ العلم ٠

سـادتى :

**ما خيم الجهل فى أمة الا أذلها ، وما انبلج ضوء العلم بين قوم
الا عزوا أيها العلماء أيها العظماء أيها الشعراء والأدباء قادة الأفكار
دعاة الأمة ، اربأوا بها فالسبيل واضـــحة ، علموا الأمة ، علموا
الأمة ٠**

الآثار الفتحية ص ١٢٣ ــ ١٢٦ ٠

التنـــافس

ما خلق الله الانسان الا ليكمل به عالم الوجود الذى لولا ايجاده فيه لكان بلا وجود · وما زاده فى قوة الادراك وركب فيه الأخلاق والملكات النفســانية الا ليتم ما أراده منه وهو انتظــام عــالم المحسوسات وما وجه فكرة كل فريق منه لجهة تباين ما توجهت اليه فكرة الآخر الا لتكثر طرق منافعه وتتشعب له ســبل الارتفاق · وما غرس خلق التنافس فى أصل فطرته الا لتنمو تلك الطرق النافعة وتتقدم هذه السبل الارتفاقية فينتج عنهما وصف المدنية والعمران فى أى موقع من القارة يستوطنه هذا الانسان ·

وانا بأول نظرة نرى أن هذا الخلق (وهو التنافس) قد استوى فيه الجبلى والحضرى أو الوحشى والمدنى فلا نبصر واحدا من هذين الصنفين الا وفيه هذا الخلق من أصل الفطرة وله فيه آثار ظاهرة تدفعه للأعمال البدنية أو الأشــغال الفكرية التى تظهر نتائجها فى عالم العيان فنرى كل واحد من هذا النوع الانســانى يدفعه هذا الخلق الى اعمال فكرته واجهاد آلاته الحســية قصد اللحاق بمن رآه أظهر عملا من الأعمال عادت عليه منه منفعة جسمية أو عقلية ثم اذا رأى نفسه قد وصل الى درجة من كان له عليه السبق تقوى فيه الأمل وبالغ فى الجلد والاقبال على العمل ليتجاوز هذه النقطة التى وقف فيها سواه وهناك يطلب الغاية التى دفعه اليها خلق

التنافس الفطرى وهى احراز قصب السبق فى الأعمال وهكذا حال كل واحد من الناس ينظر الى أعمال مواطنيه ومعاشريه من أى نوع تكون فتتوجه نفسه الى المشاركة ثم لا يرضى الا بالنهوض للاقبال عليها والمنافسة فيها ٠

ولا حاجة بنا الى تفاضل الأعمال التى هى مورد تنافس العمال فانها كثيرة الأصناف متباينة الأنواع على حسب اختلاف الناس فى التقدم والتأخر والتمدن والتبربر والتربية والهمجية والحضارة والجبلية فان لكل صنف من هذه المخلوقات عادات ومألوفات تناقض ما اعتاده الآخرون فيذم هذا ما يمتدحه الثانى ويغضب ذاك مما يفرح به الآخر ويلذ الواحد بما يتألم منه غيره والعادة كما قالوا احدى طبائع الانسان وعلى هذا فكما يكون التنافس فى المنافع والخيرات يكون كذلك فى الشرور والمضرات وكل ميسر لما خلق له ٠

هذا وانا كما نرى هذا الخلق فى كل واحد من الناس كذلك نراه فى كل مملكة أو أمة جاورت سواها من الأمم والممالك فكلما تقدمت احداها الى عمل من الأعمال التى تظهر نتائجها وتشاهد منافعها التفتت اليها الأخرى وجارتها فى الوسائل التى أوصلتها الى خطتها واكسبتها الفائدة التى حصلت عليها فربما ادركتها فى هذا السبيل بمكابدة الأسباب والوسائل التى اتخذتها المتقدمة سلما ترتقى عليه وهذا ان كان القابضون على أزمة ادارتها أناس جربوا الأمور وعرفوا كيف يكون الوصول الى ما فيه الخير لبلادهم واحاطوا علما بطرق المنافع فاجتلبوها ولم تخف عليهم مداخل الشرور فاجتنبوها وربما رجعت الى الخلف ووقعت فى حضيض التأخر بالخروج عن الحد والشطط فى القصد والجهل التام بطرق المنافع والمضار وهذا ان كان فيها من الجهال الأغبياء من يكون لهم نوع من السلطة اما بالصدفة واما بالتغلب والاعتساف وقد تكون الأمة فى بعض الأحيان على غير هاتين الحالتين أعنى ليست فاقدة للرجال الامناء الذين

يديرونها وهم على ما أسلفناه من الأوصاف فى تجربة الأمور ومعرفة الخير من الشر وليست خالية من الأوباش الذين يقطعون عليها طرق التقدم التى ينتهجها أولئك الأمناء وهذه الأمة لابد أن يعتورها من الحوادث المكدرة لصفو راحتها ما يجبر أهليها على اليقظة من الغفلة ويجعلهم يحسون بمصدر الخير والشر فلا تلبث أن تعرف للأول بالفضل فتحبه وتواليه وتشهد للثانى بالجهل فتمقته وتعاديه وهنالك يتسنى لها أن يقيمها رجالها من العثرة ويقيلوها مما وقع بها من المصاعب ويستأصلوا منها شافة الفساد ثم لا يزالون بها يصلحون ما أفسدته النفوس الظالمة ويجددون المنافع التى طمستها حوادث الجهلة حتى يعيدوها فى نقطتها التى أوصلوها اليها قبل أن تمسها أيدى المفسدين ويتمموا لها ما كان فى عزيمتهم من الاصلاح الذى دعاهم اليه منافسة مجاوريهم من الأمم والممالك فى التقدم والعمران ٠

وانا لا نذهب فى التمثيل لهذا القسم الثالث من الأمم الى بعيد فان البلاد المصرية بين أيدينا وهى التى تصح موضوعا لهذا التمثيل كانت قبل السنين الماضية (التى غايتها اخماد الفتنة العسكرية) جادة فى طريق التقدم يمهد لها أرباب الحل والعقد فيها وهم الخبيرون بمنافعها برعاية الخديوى السابق أسباب الوصول الى الكمال ووسائل الترقى الى مدارج المدنية وينافسون الممالك التى سبقتها فى سبيل الانسانية ويجارونهم فيما وصلوا به من الوسائل والأسباب وكانت قد ناهزت الوصول الى ما قصدوه بها من الخير فارتفعت قيمتها بين مجاورتها من الأمم وعلا شأنها عند الناس وحازت وثوق الدول بها بعد أن كانت عندها تعد من البلاد الساقطة عن درجة الوثوق والاعتبار وكانت ادارتها قد أخذت الموضع الأول من الانتظام وأهلوها وصلوا الى درجة من معرفة الواجبات وفرغوا من اشتغال البال بالمظالم وتفرغوا الى الاقبال على الأعمال آمنين على ما يجتنوه من ثمرة الأموال وتفننوا فى الاكتساب من الوجوه القانونية وتوسعوا

فى طرقه بحكم خلق التنافس المفطور عليه كل انسان وكانت لا يرى فيها أمر يخرج عما حدده القانون العادل ولا مأمور يتجاوز حده الذى يناسبه الا أخذته يد العدل والانصـــاف فارتفع الجور وأمنت الضعفاء سطوة الأقوياء ورجع جد كل واحد وتعبه الى منفعة نفسه لا تتجاوز الى سواه الا بالرضاء والقبول وبالجملة كانت فى غنية عن تلك الأشهر التى ضربتها فيها أيدى الزمان بما قدر عليها من الحوادث فأرجعتها عن وجهة الاصـــلاح وكادت تتقهقر الى وهدة الانحطاط حتى مرت بها وهى تئن ضجرا من انقطاعها عن تلك الوجهة التى اتجهت اليها أفكار رؤساء المصلحين ووقوفها فى خطة يمقتها عليه التمدن والعمران .

هذه كانت أحوال البلاد المصـــرية على الاجمال أعنى كان التنافس فيها قاصرا على ما فيه الخير للبلاد ولجميع سكانها وعلى ما فيه رفعة شأنهم بين الممالك المجاورة لهم وارتقاؤهم الى مايحسبون به من الأمم المتحلية بشعار المدنية والتهذيب أما وقد نزلت بها تلك الأشهر المشؤومة التى ســقطت من أيام تمدنها ومحيت من تاريخ تقدمها فقد كان حالها يذيب الأفئدة كمدا ويذهب بالنفوس حسرات حيث تسلطت فيها الفئة العسكرية الباغية التى خربت سياج العدل ومزقت حلل الانسانية وتمسكت بالبغى والعدوان فأقبل كل واحد منها ينافس صاحبه فى التخريب والتدمير وهدم الأساسات العادلة وتجديد شرائع أقاموها على دعائم الأغراض الذاتية فأتوا على كل أصل من أصول المدنية ولم يبقوا فى البلاد أثرا ظاهرا لتلك الروح التى كان يتنافس فيها الرجال المؤسسون ولكنا مع ذلك نحمد الله جل شأنه حيث لم يطل بالبلاد زمن أولئك الأشرار الذين قصروا تنافســـهم على البغى والاضرار وأقدر أهل الاصلاح على كبح تلك الشرور وسهلوا لهم طرق العودة الى تكملة أعمالهم الخيرية التى أسستها أفكارهم السليمة على القواعد الملائمة لمصلحة البلاد وأهاليها .

الآثار الفتحية ص ١٢٢ ــ ١٣٧ .

التمدن والحـــرية

الانسان محترم فى ذاته من حيث الخلقة والتكوين باعتبار كونه انسانا فان دعاه باعث الكمال وامتطى ذروة سنام العلوم وتتوج بأكليل المعارف زها باسماله بدر السعادة فارتقى منار الشرق ونادى لسان مجده بوجوب احترام حقوقه وارتفاع شأنه وان استمر على الجهل الطبيعى ولم يقتف ما يحفظ احترامه الذاتى ويكلأه باجتناء أزهار المحامد واجتناب ما يشوه أعماله هوى الى حضيض الهوان والتحق بعالم الوحش المجرد عن التمييز بصلة الافعال العايد عليه نفعها مال لعدم استحصاله على ما يؤهله لقبول ما يناســـبه من المعلومات التى بها يصون حقوقه المادية والمعنوية ·

وانى بما وسعه علمى أقول مع كمال الأسف ان البعض من ابناء شعبنا المصرى أصلح الله حالهم قد استعملوا لفظة الحرية فى غير ما وضعت له وذلك لعدم وجود القابلية لفهم المعانى بالنسبة لاستمرارهم على الفطرة الأصلية بدون انتقالهم فى درج المعارف كما استعملوا لفظة التمدن فى غير ما وضعت له أيضا فأخطأوا الحقيقة وتجاوزوا حدود القوانين الموضوعة على نهج الحرية وتأسيس التمدن فتطرق الخلل الى أعمالهم وســـبحوا فى بحار المخـالفات فقطعوا السابلة واســـتضعف القوى من دونه ولم يبالوا بسـلب أعراضهم ولا بمتابعة أغراضـــهم مع وجود القوانين الحقة التى ترجع اليها

هذه الأمة فى معلوماتها العمومية والخصـــوصية وهيئاتها النفسانية زاعمين أن الحرية تكون هكذا ولقد ســـــاءنى ما أراه من افراط البعض فى تعاطى الحشـــيش والمســـكرات وارتكاب المنكر وترك الفرايض الواجب عليه أداؤها زاعما أن هذا هو التمدن ان لم أقل انهم يأنفون ممن تمشى على ســـنن الديانة باتباع مأموراتها وجوبا وندبا وترك منهياتها كذلك لا وأبيك ما هذا هو الحرية ولا هذا هو التمدن فان حكومتنا السنية ثبت الله بالعدل أقدامها ونشر فى سماء النصر اعلامها لما اطلقت الحرية لشعبها انبأتهم بانهم احرار فى أعمالهم القولية والفعلية بالمطابقة لقوانينها المتبعة وأوجبت الجزاء على ما يخالفها لما يلزم على ذلك من فساد نطاق الهيئة الاجتماعية وعدم احترام قوانين تلك الحكومة التى بيدها أزمة الضبط والربط مع انهم لو استقاموا على الطريقة المثلى وأدوا فرائض حكومتهم العينية التى افترضـــتها بوجه القانون الخالى من الاجحاف ورد المظالم لأهليها وحادوا عن تعدى الحدود واطاعوا ولاة الأمور فيما تجب الطاعة فيه كانوا ولا ريب أحرارا اذ لا حكومة حينئذ تستعبدهم ولا حاكم يتسلط عليهم فضـــلا عما ينتجه ذلك من العمـــل على الائتلاف والتعاضـــد الراغبين فيه لتوفر الثروة وحفظ الشـــرف المترتب عليه نيل السعادة الأبدية ولو تضلعوا من جداول حدائق العلوم واحتسوا دهان المعارف لعلموا أن الشريعة كافلة بتبيان جميع ما فيه شرف الانسانية دنيا وأخرى ولو عملوا ودخلوا بساتين العلوم واقتطفوا من أزهارها لرأوا أنه ليس فيما خامر العقل خير أو نوع من التمدن ولو كان كذلك لما تسبب عن الافراط فى الحشيش والخمر مضار كثيرة مشاهدة بالذوق والعيان كاعدام الأموال وضعف القوى العقلية وفساد الأعضاء الباطنة واعدام الرجال المترتب عليه ترك البنين والأهلين يتامى وايامى كما شوهد ذلك فى كثير من الوقائع وكذا تقرر انها أم الخبائث على أنه لا يسوغ لذوى العقول الظرفاء ذوى الانسانية أن يعدوها أسا لتمدنهم لما يلزم عليه من انتزاع مادة

الثروة والوصول الى حالة لا يتمكن معها من الاستعداد الى صالح عمل يتمم به آدابه والسبب الوحيد هو عدم التهذيب فى أصل التربية حال الطفولة لأن الصغير متى بلغ أشده من غير تهذيب وتأديب صار مطلق العنان فى الجهالة مسترسلا فى البطالة والملاهى استنادا على ثروة أبيه أو غنى والديه حتى يشـــب على ما يذهب بتلك الثروة والغنى فضلا عما يؤول اليه من سوء العاقبة فلو عوداه من صغره على التهذيب والتأديب بما يناسبه من المعلومات من غير تفريط له فيما يدعو اليه الهوى والشيطان لشب على الاستقامة وترقى سلم المعارف والكمالات خصوصا فى هذا العصر الذى توجهت فيه همم ولى نعمتنا وشمس سعادتنا الخديو الأعظم لاكثار المدارس ومدارسة العلوم العايد على العموم نفعها حالا ومآلا ٠

وعليه فالتمس من بنى الانسانية فى عموم شعبنا المصرى على تباين مذاهبهم واختلاف مشاربهم أن ينشطوا بالاقبال على روض التعليم والتنزه ببهجة المعارف مع حث أولادهم على ملازمة المدارس والازدياد من التعليم حتى ينتهج الجميع سبل الرشاد ولا يجهلوا معانى التمدن والحرية ٠

وبهذا يحسن لهم المبدأ والختام ٠

الآثار الفتحية ص ١٣٨ – ١٤١ ٠

التمدن والتقدم

طنطن الكثير بذكرهما وأدارهما قومنا على ألسنتهم فأخذهما الفريق الأعظم بمعنى الاطلاق فى الشـــهوات والملاذ واتيان القبائح والشرور ولهذا نراهم منهمكين فيها غاية الانهماك يمضون جميع أوقاتهم فى السعى اليها فنشأ عن ذلك فساد عمومى فى المدن والقرى واختلت بانتشار هذين اللفظين على هذه الصورة الأهوال وغادر الناس الاجتهاد فى اكتســـاب النقود واهملوا الجد فى حفظ الموجود فخسروا وربح الغير وكسدت بضاعتهم ونفقت سوق ســـواهم فكان مثل التمدن بالنسبة لهم ولغيرهم كمثل طائر نشر جناحيه شـــرقا وغربا تنثر من أولهما البلايا والمصـــائب ويقطر ثانيهما على من استظل بظله سعادة ونعيما وقد اســـتقر الأول عندنا واســـتمر استيلاؤه فى أفقنا فحق للعيون أن تذرف الدموع على هذا المصاب ولألسنة القوم أن تنشد قول ابن أفلح ٠

فلذا الموقف أعددنا البكا * ولذا اليوم دموعى تقتنى

فأى عين تقر بهذه الحال وأى ذهن يعد هذا تمدنا وتقدما لعمرى ان العين تبكى عليه دما والعقل ينكره انكارا ويحكم ان هذا من أتعس الأحوال وان عده الناس جديدا وان اســـلافنا خير منا وأحســـن سيرة وذلك انهم كانوا ذوى اخلاق فاضلة ومزايا لطيفة

وعقائد سليمة وأحوال مستقيمة اذا سعوا جدوا واذا نطقوا صدقوا واذا اعتقدوا اختاروا الحق وهذه آثارهم تشهد بفضلهم وتنطق بما كانوا عليه وأما نحن فخلف أضاعوا فضائل السلف واتبعوا الشهوات · عقائد الكثير منا فاسدة والعزائم خائرة والذمم خربة والهمم فاترة والقلوب قاسـية والأقوال كاذبة والاخـلاق ذميمة وهذه أعمالنا تشهد بذلك نبذل أموالنا ولكن فيما يضرنا أو مالا فائدة فيه وننهر اليتيم وندع المسـكين ونوجعهما سبا وشـتما اذا سألانا حطاما ونوالى ذوى الفجور وأرباب الشـرور ونواسيهم مالا بغير حسـاب ولا سـؤال ونجتهد فى تزيين صورنا الظاهرية وتحسـينها بأغلى الثياب وأرفعها قيمة ونشـتريها بالربا الباهظ والفائض الفاضـح (يمحق الله الربا) ومن هذا تراكمت الديون حتى أثقلت كواهلنا واسـتغرقت الرهون كثيرا من أملاكنا كل هذا ونعد أنفسـنا متمدنين ونزعم اننا أحسـن حالا من آبائنا الأولين فواخجلتاه وآ أسفاه على قلوب عميت عن الرشاد وعدلت عن طريق السداد وضلت وما لها من هاد ومن الغريب انك اذا نصحت واحدا منهم نفر منك واشمأز وعنفك تعنيفا تكره معه الاخلاص وتميل الى التمويه بل يهزأ بك ويسخر منك قائلا (خذنى على جناحك وطير) الى غيرها من ألفاظ الاستخفاف ولا سيما ان فغرت الأفواه بلفظة حرية حيث فهموا انها عبارة عن ان الانسان يفعل ما يريد وان خالف الحق والدين وكان من أقبح الأمور ولم يدروا أن هذه بهيمية لا حرية وان معنى الحرية مجموع الفضائل الخلقية من حكمة وشجاعة وعفة وعدالة وان شئت فقل هى اصدار ما يحسن من الآثار وما يجمل من الأعمال ولا يكون هذا الا بأن يتباعد الانسان عما نهت الشريعة عنه ويقوم بأداء ما توجبه عليه من الفروض فيعاشر الناس بالمعروف ويسلك بهم سبيل الاخلاص ويدع الحسد والكبرياء والعجب والخيلاء والشره والنهامة والتملق والنفاق والشكاسة والغدر والاخلاف الى غير هذه من أمراض القلوب التى أوجبت الشريعة ازالتها ومحوها

والتحلى بأضدادها وانا والله أحق الناس باعتناق الفضائل واطراح الرذائل وأحوجهم الى الجد والنشاط فى الأعمال لاسيما وقد جاد الزمان علينا بمليك جمع بين كمال الاخلاق ورجاحة العقل ونشـــر لواء العدل فى الآفاق ومال بجميع قواه الى اسداء الخيرات وفعل المبرات وابلاغ رعاياه الى أسمى الدرجات وهذه صـــفات انطوت عليها ذاته الشريفة وفطرته عليها مما أحراه بقول مادحه ·

هو فى العدل مفرد ووحيد وعليه لأجـل ذلك يثنى
قمر التم لو تبدى لشـــمس لحاضوءها المنير وأثنى
فطن كامل همـــــام نبيه كل نطق عليه بالخير أثنى

أفلم يأن لنا أن نهتدى بهديه ونتبع طريقته الراشدة فننظر من مرآة أفكارنا الى صور أحوالنا فنقوم ما اعتل منها ونحافظ على القويم وما نبلغ به الى المنزلة الرفيعة والدرجات العلى ولنا بذلك أمل قوى ورجاء أكيد لما نعلم من ان الناس على دين ملوكهم فاذا انحرفوا يوما عن طريقهم فلابد أن يسلكوها ويتوجهوا الى الغاية التى يولون وجوههم وقد رأينا من آثار ذلك ما يوجب علينا أن نطلق الألسنة بالثناء على جنابه العالى ونشكره على ممر الأيام ويلزمنا أن نقوم له بحسن الطاعة وتمام الانقياد عملا بقوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الامر منكم) وأيضا بحق ما له علينا من الأيادئ والاحسان هدانا الله الى انتهاج منهاجه القويم ووفقنا الى شكر هذا الاحسان العميم وأدام لنا وجوده ممتعا بأنجـــاله الـــكرام مؤيدا برجال دولته الفخام ما أضاء الفرقدان وسطع القمران ·

الآثار الفتحية ص ١٥١ ـ ١٥٤ ·

المصـــادر والمراجع

أولا : وثائق غير منشورة

ـ ملف خدمة أحمد فتحى زغلول ، وهو مودع بدار المحفوظات العمومية بالقلعة بالقاهرة تحت رقم ٢٥٦٨٧ ـ محفظة رقم ١١٠٥ ـ مخزن ٥٤ ـ عين (٢) ٠

ثانيا : مذكرات غير منشورة

ـ مذكرات سعد زغلول وهى مودعة بدار الوثائق التاريخية بالقاهرة وقد استفدنا من الكراسات أرقام ٦ ، ٧ ، ٣٠ ٠

) مذكرات محمد فريد وهى قسمان الأول بعنوان « تاريخ مصر ابتداء من سنة ١٨٩١ مسيحية » وهى مودعة بدار الوثائق القومية بالقلعة(*) ٠

ثالثا : دوريات

صحيفة الجريدة اكتوبر ١٩٠٧ ، يناير ١٩٠٨ ، مايو ١٩١٤ ٠

(★) نشر القسم الثانى من المذكرات وعنوانه « مذكراتى بعد الهجرة » عن الهيئـة المصريـة العامة للكتـاب وقد أفدنا منه أيضا وسجلناه فى قائمـة المؤلفـات .

صحيفة المقطم يونيو ١٩٠٧ ·

صحيفة المؤيد يونيو ١٩٠٧ ·

صحيفة الاخبار سبتمبر ١٩٨٢ ·

رابعا : الدراسات والمؤلفات : (باللغة العربية)

أحمد زكريا الشلق :

حزب الأمة ودوره فى السياسة المصرية ، دار المعارف بالقاهرة ١٩٧٩ ·

أحمد شفيق باشا :

مذكراتى فى نصف قرن ، الجزء الثانى بقسميه ، ط (١) القاهرة ١٩٣٦ ·

أحمد عبد الرحيم مصطفى :

تاريخ مصر السياسى من الاحتلال حتى المعاهدة ، دار المعارف بمصر ١٩٦٧ ·

أحمد عبد الرحيم مصطفى :

تطور الفكر السياسى فى مصر الحديثة ـ القاهرة ١٩٧٣ ·

احمد فتحى زغلول :

الآثار الفتحية ، جمع عبد العال حمدان ، القاهرة ١٩١٤ (؟) ·

احمد فتحى زغلول :

المحاماة ، القاهرة ١٩٠٠ ·

أحمد فتحي زغلول :

(مترجما) من أمير الى سلطان ، ط (٢) القاهرة ١٩٢٢ ٠

أحمد فتحي زغلول :

شرح القانون المدنى ، القاهرة ١٩١٣ ٠

أحمد فتحي زغلول :

التزوير فى الأوراق ، القاهرة ، بدون تاريخ ٠

أحمد لطفي السيد :

تأملات فى الفلسفة والأدب والسياسة والاجتماع ، دار المعارف بمصر ١٩٤٦ ٠

الياس زاخورا :

مرآة العصر ، مجلد (٢) القاهرة ١٩١٦ ٠

ادمون ديمولان :

سر تقدم الانكليز السكسونيين ، ترجمة أحمد فتحى زغلول ط (٢) بدون تاريخ ٠

البرت حوراني :

الفكر العربى فى عصر النهضة ، ترجمة كريم عزقول ، بيروت ١٩٦٨ ٠

بنتام (ج) :

أصول الشرائع ، ترجمة أحمد فتحى زغلول ، جزءان القاهرة ١٨٩٢ ٠

تشارلس آدمز :

الاسلام والتجديد فى مصر ، ترجمة عباس محمود ، القاهرة ١٩٣٥ ٠

جان توشار وآخرون :

تاريخ الفكر السياسى ، ترجمة د ٠ على مقلد ، بيروت ١٩٦٨

جوستاف لوبون :

روح الاجتماع ، ترجمة أحمد فتحى زغلول ، القاهرة ١٩٠٩

جوستاف لوبون :

سر تطور الأمم ، ترجمة أحمد فتحى زغلول ، القاهرة ط (٢) سنة ١٩٢١ ٠

جوستاف لوبون :

جوامع الكلم ، ترجمة أحمد فتحى زغلول ، القاهرة ط (٢) سنة ١٩٢٢ ٠

صلاح عيسى :

حكايات من مصر ، بيروت ١٩٧٣ ٠

عبد الخالق لاشين :

سعد زغلول ودوره فى السياسة المصرية حتى عام ١٩١٤ ، دار المعارف بمصر ١٩٧١ ٠

عبد العاطى محمد :

الفكر السياسى للامام محمد عبده ، الهيئة المصرية للكتاب ١٩٧٨ ٠

ماهر حسن فهمى :

أحمد شوقى ، دار المتنبى بالدوحة ـ قطر ١٩٨٥ ٠

محمد جمال الدين المسدى :

دنشواى ، الهيئة المصرية للكتاب ١٩٧٤ ٠

محمد رشيد رضا :

تاريخ الأستاذ الامام محمد عبده ، الجزء الأول ، مطبعة المنار بالقاهرة سنة ١٣٥٠ هـ ٠

محمد عمر :

حاضر المصريين أو سر تأخرهم ، مطبعة المقتطف بالقاهرة ١٩٠٢ ٠

محمد فريد :

أوراق محمد فريد ، « ومذكراتى بعد الهجرة » الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة سنة ١٩٨١ ٠

محمد محمد حسين :

الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر ، جزءان ، ط (٤) ـ الرسالة ـ بيروت ١٩٨٠ ٠

هنرى دى كاسترى (الكونت) :

الاسلام ، خواطر وسوانح ، ترجمة أحمد فتحى زغلول ، ط (٢) القاهرة بدون تاريخ ٠

باللغة الانجليزية :

— Ahmed· J.M. The Intellectual Origins of Egyptian Nationalsm, London 1960.

— AL-Sayyid, Afaf L., Egypt and Cromer, London, 1968.

— Cromer, the Earl of., Abbas II, London 1915,

فهرس كتاب

رؤية فى تحديث الفكر المصرى (٢)

رقم الأيداع : ٨٦/٧٦٦٥
الترقيم الدولى : ٨ ـ ١٢٢٢٠ ـ ٠١ ـ ٩٧٧

الهيئة المصرية العامة للكتاب

هذه الدراسة محاولة جادة لإماطة اللثام عن تراث فكر نفر من المفكرين المصريين ، لفهم تفكيرهم ، وتقدير إسهامهم فى تحديث الفكر المصرى ، والرجل الذى ألقيت عليه الأضواء من خلالها (أحمد فتحى زغلول) ، تناول قضايا هامة تارة بالتأليف ، وتارة أخرى بالترجمة عن الأصول الأوروبية ، محاولا الإفادة بها فى تطوير المجتمع المصرى .

وهذه الدراسة تكشف عن هذا الجهد صارفةً النظر عن موقفه فى قضية دنشواى التى ألقت ظلالاً حجبت الرؤية عنه سنين عددا ، فلعلها مبادرة جادة فى مجال تحديث الفكر المصرى .

١٠٠ قرش مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب